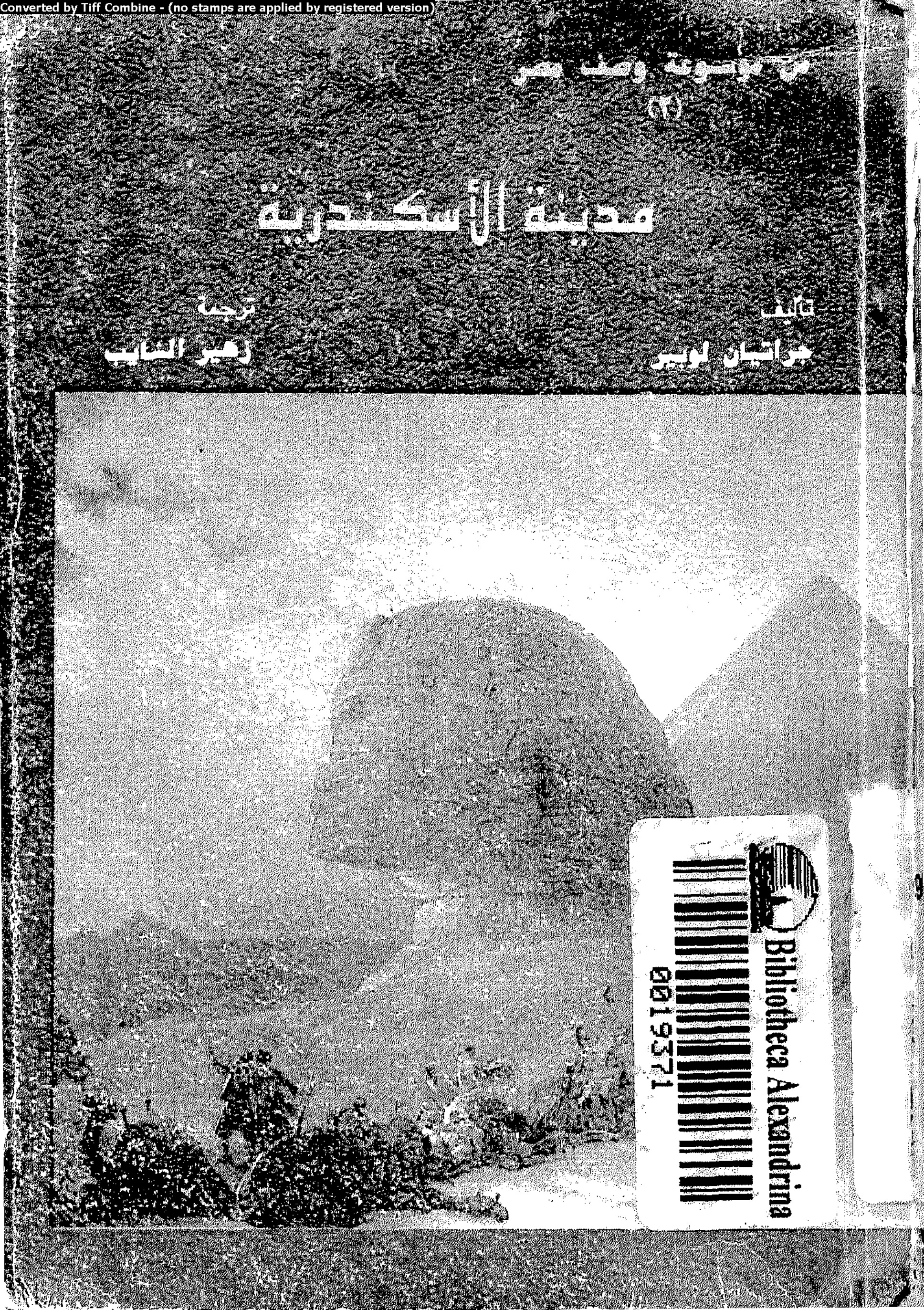

من موسوعة وصف مصر
(٣)
مدينة الأسكندرية
تأليف
جراتيان لوبير
ترجمة
زهير الشايب
Bibliotheca Alexandrina
0019371



من موسوعة وصف مصر

(٢)

مدينة الأسكندرية

تأليف : جراتيان لوبير

ترجمة : زهير الشايب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــــدمة

سبق أن صدرت أولى تلك الدراسات التى وقع عليها الاختيار من الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر ، و كانت تحمل عنوان : " كيف خرج اليهود من مصر القديمة " . و الآن مع الدراسة الثانية ، و هى عن " مدينة الأسكندرية " . و فيها عرض الكاتب وصفاً للحالة الراهنة التى كانت عليها المدينة عند قدوم الجيش الفرنسى فى نهاية القرن الثامن عشر ، ثم عرض حالتها القديمة وقت أن كانت صاحبة مجد وازدهار تحت حكم الإغريق و الرومان ؛ ثم أعقب ذلك بمناقشة لما قدمه المؤرخون القدماء مع مقارنة بالوضع الراهن للمدينة .

و نحن إذ نقدم هذه الدراسات نُذكّر أن كل دراسة مقدمة تكون على النحو الذى جاءت به فى الترجمة الكاملة دون زيادة أو نقصان، ، وأن سعينا هذا ما هو الا إرضاء لمختلف الدارسين و القراء ، فى أن يقتنى كلٌ ما يخصه أو يميل إليه من تلك الموسوعة الضخمة بطريقة سهلة ميسرة .

و بالله التوفيق ..

منى زُهير الشايب

ـ ٦ ـ

لقد أصبحت قصور الملوك مأوى للحيوانات الضارية ؛
وأضحت مذابح الآلهة مرتعا للزواحف الدنسة ..
آه !
كم من مجد أفل نجمه ،
وكم من المنشآت قد اندثر !
هكذا تفنى أعمال البشر ،
وهكذا ...
تغرب شمس الامبراطوريات والدول".

فولنى Volney من كتابه :
« تأملات حول سقوط الامبراطوريات»

أصبحت الأسكندرية فى عهد البطالمة - خلفاء الاسكندر، مؤسسها الذى منحها اسمه - عاصمة لمصر، ومركزا لتجارة الهند، وارتفعت فى عهد الامبراطورية الرومانية إلى مرتبة المدينة الثانية فى العالم، وظلت تحتفظ بمكانتها، مع ما ظل لها من مجد وعظمة، كأغنى مستودع للمعارف الإنسانية. ومنذ استقرار المسيحية وحتى عصر الامبراطورية الواطئة، كانت كنيسة الأسكندرية أولى كنائس الشرق واحدة من مدن المسيحية الحصينة فى هذه المنطقة، لكن السطوة التى كانت لها والتى تزعزعت على يد القنصل العام الثانى، قد سلبت منها كلية على يد القنصل الثالث، لتنتقل منها إلى القسطنطينية، على الرغم من معارضة البابوات، وأخيرا سقطت الأسكندرية بعد أن عانت طويلا من التمزقات-فى قبضة العرب الحديدية حملة الدعوة الإسلامية، ولم تتوقف منذ ذلك الحين عن الانحدار نحو الهاوية. وإذا كانت لا تزال بها اليوم بقية من حياة، فيمكن القول بأنها قد تضاءلت - بعد أن عانت طويلا طيلة اثنى عشر قرنا - فى عهد الامبراطورية

العثمانية، فلم يعد يعيش بها سوى شعب صغير، لا يزال يقيم وسط خرائبه وتراب مقابره، ونحن نكتفي هنا بأن نستعيد، باختصار، أهم العهود والتطورات التى مرت بهذه المدينة الشهيرة، فى حوليات العالم.

فى العام الـ٤٢٢ من تأسيس روما، الأول من الأولمبياد الـ١١٢، والعام الـ٣٣٢ قبل الميلاد، لم يكن أمام فاتح آسيا والهند، إلا أن يستولى على مصر، لكى يُحكم سيطرته على هذه المنطقة، وأن يُنشىء فيها المدينة الجديدة التى حملت اسمه، والتى علت وتدعمت بعظمة لمدة ثلاثمائة عام فى عهد الحكام البطالمة، خلفائه.

وفى العام الـ٧٠٦ من تأسيس روما، أى السابع والأربعين قبل الميلاد، استولى يوليوس قيصر على الأسكندرية، وأعمل فيها الحديد والنار، انتقاماً من دفاع سكانها العنيد.

وفى العام الـ٧٢٣ من تأسيس روما، وهو العام الثلاثون قبل الميلاد، مر بمصر أوكتافيوس أغسطس، ليطارد أنطونيو

وكليوباترا، واستولى على المدينة، وتحت أسوارها قضى إلى الأبد على عدوه الذى لم تكن تفتر له همة.

وفى عامى ٢٦٩ و ٢٧٥ من العصر الحديث، كان على هذه المدينة أن تتحمل فترتى حصار طويلتين وبائستين، وذلك فى عهد الامبراطورين: كلود الثانى، وأورليان.

وفى عام ٢٩٨ حاصر الامبراطور دقلديانوس Dioclétien المدينة واستولى عليها، ولقد كان يجدّ فى الحصول عليها، على الأقل لتعويض خسائره.

وفى عام ٦١٥ استولى الفرس على الأسكندرية، واندفعوا نحو أفريقيا عن طريق البنتابول(*) الليبى.

(*) Pentapolis وهو الاسم الرومى المقابل لكلمة أنطابلس Antapulus العربية؛ ويعنى هذا الاسم: المدن الخمس؛ وتذكر كتب القبط أنه يعنى المدن الخمس جهة الغرب؛ ويطلق جغرافيو العرب على مجموعة المدن الخمس المذكورة اسم إقليم برقة، ويظن بعضهم أن برقة أو أنطابلس اسم مدينة، والصواب أنه اسم إقليم يشتمل على خمس مدن، هى : بنغازى Berénice ؛ طوقرة Tokhira ؛ طلميثة Tolimais؛ قرناه وهى الآن قيرنيا Cyréne ويسمونها باريتشى أى باريس؛ درنه Adirnai. =

وفى العام العشرين من الهجرة أى الـ٦٤٢ من العصر الحديث، قام مبعوث الخليفة عمر، وهو عمرو الرهيب، وبعد أربعة عشر شهراً من الحصار والقتال العنيد بين كلا الجانبين، باقتحام المدينة وقلبها رأساً على عقب.

وفى عام ٥٦٢ من التقويم الهجرى أو سنة ١١٦٧ ميلادية حاصر الأفرنج المدينة واقتحموها، لكن السلطان صلاح الدين طردهم منها فى العام التالى.

وفى سنة ١٢٠٢ ميلادية استولى البنادقة على الأسكندرية، واستعادت المدينة تحت سيطرة هذه الجمهورية، التى كانت قوية فى ذلك الوقت، بعض ازدهارها بسبب

= أما القرية التى يطلقون عليها اسم برقة فهى قرية المرج الواقعة بين هذه المدن الخمس فى منطقة أراضى الجبل الأخضر ببرقة الذى يسميه الفرنجة Cyrénaique نسبة إلى Cyréne التى كانت قاعدة له قديماً.

نقلا عن القاموس الجغرافى للأستاذ محمد رمزى، الجزء الأول، البلدان المندرسة. (المترجم).

التجارة التى قامت بها عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى.

وفى سنة ١٢٥٠، وبينما كان لويس التاسع يتباحث فى أمر افتداء نفسه من سلطان مصر، استولى ملك قبرص من جديد على هذه المدينة وخربها.

وفى عام ٧٦٧ من الهجرة أو ١٣٦٧ ميلادية، غزا الفرنجة المدينة من جديد وانتهبوها.

وعلى الرغم من هذه الكوارث الجمة، فقد ظلت الأسكندرية مزدهرة حتى نحو نهاية القرن الـــرابع عشر، حسبما يذكر أبو الفداء، الذى قام بزيارة لها فى عام ١٣٨٣.

وفى عام ١٥١٧، استولى السلطان سليم على هذه المدينة من يد حكام مصر وسوريا الذين كانوا مستقلين عن الباب العثمانى، ومنذ هذه الفترة، يبدأ تاريخ أكبر تغيير جلب الانحدار والخراب الكامل إلى هذه المدينة.

وفى الرابع عشر من ميسيدور من العام السادس لتأسيس الجمهورية الفرنسية (٢ يونيه ١٧٩٨) أى العام الـ١٢١٣ الهجرى، استولى الفرنسيون من جديد على الأسكندرية تحت قيادة بونابرت، فلم يكد هذا القائد ينزل على الساحل الأفريقى حتى تقدم للهجوم على المدينة، ولا بد أن أسلافنا، سوف يصعب عليهم أن يصدقوا أن ثلاث ساعات فقط كانت كافية لكى يتمكن ثلاثة آلاف من الفرنسيين أن ينتصروا، وأن يستولوا على هذا المكان، الذى كان الباب العثمانى ينظر إليه باعتباره الطريق لإمبراطوريته فى أفريقيا ومع ذلك، فمع اعترافنا بأن جدران أسوار هذه المدينة لم تعد منذ وقت طويل سوى مجرد أثر من آثار قوتها فى الماضى، فإننى أعيد إلى الأذهان أنه، قبل ذلك باثنين وعشرين يوماً، لم تصمد عاصمة لجزيرة اشتهرت منذ القدم بأنها عسيرة الغزو، ولايمكن فى الحقيقة قهرها بسبب حصونها، وهى جزيرة مالطة، لم تصمد سوى يوم واحد أمام الهجوم المفاجىء لجيش بحرى كان وجود قائده سبباً فى انتصاره،

وبعد سيطرة القائد المظفر على هذا المكان، الذى يعد مفتاحاً لمصر من جهتها الغربية، غادرها بعد عدة أيام قضاها فى استعدادات حربية لاستكمال حملته. وكانت إحدى هذه الاستعدادات تقتضى من مختلف فرق المهندسين فى الجيش (الفرنسى) التعرف على المدينة، وعمل خريطة لها. وهنا نستطيع بحق أن نقول بأنه بعد البطل العبقرى الذى أسسها ومنحها اسمه، قد جاء اسكندر آخر بعد واحد وعشرين قرناً، ليعيد إليها إزدهارها القديم.

ذلكم هو موجز تواريخ الأسكندرية، ورغبة منا فى ألا نؤذى عيون القراء بالصفحات الدامية من تاريخ اضطرابات هذه المدينة، والتى اقتصرنا على تسجيل أبرزها، فسوف نقدم وصفاً لحالة المدينة كما وجدها عليها الفرنسيون بينما القرن الثامن عشر يوشك على نهايته.

ولكى نفهم هذا الوصف ينبغى أن يكون تحت أبصارنا الخريطة العامة للأسكندرية التى ألحقها المسيو لوبير، أخى

الأكبر، بدراسته عن القناة التى تربط بين البحرين[1]. وإلى هذه الخريطة الطبوغرافية التى يسمح مقياس رسمها بتبين الآثار القديمة لهذه المدينة، ظننت أن من الواجب على أن أضيف بمقياس رسم أصغر، تخطيطاً، أو بالأحرى خريطة عامة تقدم فى نفس الإطار خليجها، وميناءيها، وأحياءها، وضواحيها.

---

(١) انظر الخريطة العامة للمدينة وللميناءين، الدولة الحديثة، المجلد الثانى، اللوحة ٨٤، وكذلك تلك الدراسة عن القناة التى تربط بين البحرين، الجزء الثالث، الفصل الخامس، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ١٣٨، ١٣٩ والذى رد فيه المؤلف إلى السادة المهندسين، المدنيين والعسكريين، وبالاسم، الفضل فى الجزء الذى قاموا به فى هذا العمل المبدئى الذى قام به الفرنسيون فى مصر. وهذه الخريطة التى عملت بأكبر قدر من العناية فى كافة تفاصيلها، والتى رسمت بدرجات مختلفة، قد رسمت بمقياس ٠,٠١ من السنتيمتر لكل ١٠٠ متر أى ٠,٠٠٠١ على الطبيعة. أما الخريطة العامة للخلجان والموانىء والمدن التى قمت برسمها لفهم هذه الدراسة (انظر اللوحة ٣٢ من المجلد الخامس) فقد رسمتها بمقياس رسم ٠,٠٠٤ ملليمتر لكل مائة متر، أى ٠,٠٠٠٠٤ = $\frac{٤}{١٠٠٠٠٠}$ = $\frac{١}{٢٥٠٠٠}$ من الحجم الطبيعى. وسنرى أننى بتجميع كل المعطيات الناتجة عن العمليات الجغرافية لمهندسى الجيش الفرنسى كنت أسعى إلى إعطاء هذه الخريطة التى يعود تنفيذ رسمها الرائع إلى عناية المسيو كولان M. Collin كل التفاصيل مع كل ما تحتويه من فائدة.

إذن فبمعونة من هاتين الخريطتين، سوف نمسح موقع هذه المدينة القديمة، ولسوف تمتد هذه الأبحاث لتشمل كل الآثار التى يجدها المرء هناك.

وحتى نعالج الأمر بنظام ووضوح فسأقسم دراستى إلى جزئين أو قسمين :

الجزء الأول : وسيكون وصفاً مبسطاً للأماكن فى حالتها الحديثة، أى فى الحالة التى وجد عليها الجيش الفرنسى هذه المدينة عند استيلائه على مصر.

أما الجزء الثانى : فسيكون مناقشة مقارنة ومدعومة عن الحالة الحديثة والحالة القديمة، وسنحدد فى هذه المناقشة الآثار التى ستكون فى نفس الوقت شاهدة على ثراء وعظمة هذه المدينة القديمة : إذ ترتبط هذه المناقشة بالآثار شديدة الشهرة، وسننهى هذه الدراسة بلمحات عامة حول إمكانية ترميمها.

* * *



الجزء الأول

الحالة الحديثة لمدينة الأسكندرية تحت حكم امبراطورية الباب العثمانى

١- تقع مدينة الأسكندرية، وهى التى تسمت باسم مؤسسها الإسكندر، عند الطرف الشرقى للساحل الأفريقى، وقد بنيت فوق كتلة من الرمال ربطت القارة بجزيرة فاروس القديمة، وهذه الجزيرة التى أدت عمليات الردم إلى تحويلها إلى شبه جزيرة تحمل نفس الاسم القديم، تشمل المدينة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى، وميناءيها الطبيعيين - وهما الميناءان الوحيدان اللذان تمتلكهما مصر - وذلك لمسافة ستين فرسخا من سواحل البحر المتوسط.

وإليكم موقع المدينة تبعا لمعلومات قدمها السيدان نوى Nouet وكسنو Quesnot الفلكيان بجيش الشرق :

خط الطول (شرق خط زوال باريس) ٣٠° ٣٥' ٢٧"

خط العرض (شمالا) ٥° ١٣' ٣١"

وتحد أرض الأسكندرية التى تلامس فى الشمال البحر الأبيض، جنوباً بحيرة ماريوتيس القديمة (مريوط) التى كان حوضها الواسع قد جف تماماً فى المدة التى استولينا فيها على مصر، بينما تغزوه الآن مياه البحر. وتدفق مياه البحر هذه والتى تعود كارثتها لمجهودات تلك القوة الأوربية، غريمتنا فى السلم ومنافستنا فى مجال العلوم والفنون، كما هى عدوتنا الأبدية فى الحرب (بريطانيا)، ربط من جديد وبطريقة لا لبس فيها أرض هذه المدينة بشبه الجزيرة التى تكونها سلسلة متتابعة من الحجر الجيرى، والتى تمتد من رأس أبى قير فى الشرق إلى ما وراء برج العرب على بعد ثمانية ميريامترات ، إلى الجنوب الغربى.

٢- وأول مينائى الاسكندرية، الذى تقابله السفن القادمة من جهة الشرق عند وصولها إلى هذا الجزء من الساحل الأفريقى، هو الميناء القديم، ويقع فى جنوب خليج فسيح يتكون من سلسلة من صخور تختبىء جزئيا تحت المياه وتظهر جزئيا على سطحها، ويمتد قاع هذه الشعب الصخرية من

رأس الشيخ (العجمى) حتى رأس التين الواقع على أقصى نقطة إلى الغرب من شبه جزيرة فاروس حيث الفنار، بطول ٨٣٠٠ متر (٤٢٥٨ قامة، ٣ أقدام).

ولهذا الخليج ثلاثة ممرات طبيعية، أسهلها وأعمقها، على الرغم من تعرجه وعدم استواء قاعه، هو الممر المسمى بالأوسط، ومع ذلك فإن الجزء الذى يقع منه ناحية الشيخ لايزيد عن ثلثه، ويبلغ عرض هذا الممر حوالى ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر، ويبلغ عمقه فى أكثر أجزائه ضحالة من ٥ إلى ٦ باعات (الباع = ٦ر١م)، وهو الوحيد القادر على استقبال الفرقاطات والسفن البحرية بدون بطارياتها، وقد ظن ضباط بحريتنا أن كل سفينة لا يزيد غاطسها عن ٢٣ قدماً بعد إنقاص تباينها إلى الصفر، يمكنها أن تدخل الخليج عن طريق هذا الممر فى حالته الراهنة، وبدون أية تجهيزات. وسنظل نقرأ على الدوام بشغف ذلك الكتاب الذى أرسله الأميرال بروويى Brueye إلى الحكومة الفرنسية، قبل عدة أيام من معركة أبى قير البحرية، ونورد هنا، فى الهامش، هذا الكتاب الذى يحتوى – من حيث

علاقته بموضوع دراستنا - على معلومات من المهم الإلمام بها لخير الملاحة[1].

أما الممران الآخران المساعدان فيبلغ عمق مياههما ٣ إلى ٤ باعات، لكن اتساعهما وعمقهما غير مستويين،

---

(١) كتاب الأميرال برووى Brueye ، قائد الأسطول الفرنسى فى حملة مصر، والموجه إلى حكومة الإدارة للجمهورية الفرنسية:
من ظهر سفينة الشرق L'orient ، بخليج أبى قير، فى ٢١ ميسيدور من العام السادس (٩يوليه ١٧٩٨):
"فى التاسع عشر من ميسيدور، وبعد أن عرفنا أن السفن لاتستطيع أن تدخل الميناء بسبب ضحالة المياه عند مدخله، رفعت أشرعتى ومعى ١٣ سفينة وثلاث فرقاطات كى نلقى رواسينا فى خليج أبى قير. وهذا الموقع هو أكثر المواقع التى يمكن الحصول عليها منعة فى خليج مفتوح، حيث لا يكون بمقدور أحد أن يقترب من الأرض لحد يكفى لإقامة البطاريات، وحيث لاتستطيع سوى سفينتين معاديتين أن تصلا إلى المسافة التى تناسبهما، وإنه لأمر مرعب ألا يكون للأسكندرية ميناء تستطيع السفن أن تدخل إليه؛ فالميناء القديم الذى حظى بمديح الكثيرين، تغلقه شعب الصخور البارزة فوق سطح المياه أو المختفية تحته لتشكل مداخل بالغة الضيق لا يزيد اتساع أى منها عن ٢٣ إلى ٢٥ أو ٥٠ قدماً من المياه. والبحر هناك فى العادة عال، ومن هنا نرى أن سفينة مزودة بـ٧٤ مدفعاً ستكون معرضة تعريضاً شديداً للخطر؛ إذ ستتحطم بعد ١/٤ ساعة من إصابتها. واستجابة منى لرغبات القائد=

واتجاههما متعرج ، وقاعهما ملىء بالأعشاب الصخرية مما يجعل الرسو فيهما صعبا؛ وثمة ممر أخير، يقع إلى أقصى الشرق، وهو غير صالح إلا لدخول الزوارق والسفن الصغيرة التى تقوم بالتجارة بين مدن السواحل.

أما الرياح التى تسهل أكثر من غيرها الدخول إلى الممرات، فهى تلك التى تهب فيها بين غرب الجنوب الغربى وشرق الشمال الشرقى مارة بالشمال، وحيث إنها رياح شبه دوارة فهى تؤدى إلى حدوث دوامات تجعل من مغادرة الممر أمراً شاقاً، وفى الواقع فإنه يحدث فى بعض الأحيان، أن تضطر السفن إلى الانتظار، وبخاصة فى موسم الرياح

= العام فقد عرضت ١٠ آلاف فرنك لأى ملاح من أهل البلاد يستطيع أن يمرر الأسطول، لكن أحداً لم يشأ أن يتعهد إلا بالسفن التى يبلغ غاطسها ٢٠ قدماً على أكبر تقدير؛ ومع ذلك فانى آمل أن نتوصل إلى ممر نستطيع عن طريقه أن ندخل سفننا ذات الـ ٧٤ مدفعاً، ولن يكون ذلك إلا ثمرة لجهودات بالغة الصعوبة، وبعد ذلك قد نستطيع أن ندخل دون أخطار كبيرة، وقد يزيد عمق القاع عند الشعب الصخرية إلى ١٥ باعاً، ومع ذلك فسيظل الخروج على الدوام بالغ الصعوبة ويستغرق وقتاً بالغ الطول.
وعلى هذا، فإن هذا المكان بالنسبة لأية سفينة هو مكان بالغ السوء».

العنيفة، أشهرا بأكملها حتى يمكنها مغادرة الخليج.

وعندما نلقى البصر على هذا الخليج، الذى يسمح له عمقه واتساعه أن يستقبل الأساطيل كبيرة العدد، فإننا لنأسف لأن الطبيعة التى فعلت الكثير كى تزوده بشاطىء وطىء لا يمكن الوصول إليه من أية نقطة أخرى من الساحل، لم تكمل صنيعها فتوسع من ممراته التى يمكن الدفاع عنها دون كبير عناء.

أما الصخور التى تشكل قاع هذا الخليج فهى من طبيعة جيرية، ويمكن ببعض المجهودات الفنية التوصل إلى إعطائها اتساعاً أكثر وعمقاً أكبر[1] ، ويستطيع المرء أن يتصور أية

---

(١) يعتقد أنه عن طريق بعض الجسور العائمة المسلحة ببطارية ذات أجراس، ومسلحة بمطارق معدنية تقام فوق قطع طويلة وقوية من خشب البلوط، ومسلحة بسبائك من الحديد المدبب والقاطع، يمكن التوصل إلى تقويض وتحطيم وإنقاص نتوءات الصخور البارزة تحت خط الشعب الصخرية فى الممرات.

كما يمكن بطريقة أسهل أن نزيل وأن نرفع أنقاض وركامات هذه الصخور لتطهير قاع الممرات بواسطة جهاز للغواصين، يسمح استخدامه لثلاثة أو أربعة من العمال أن يعملوا معاً لمدة أربع إلى خمس ساعات متتالية على عمق ٣٠ أو ٤٠ قدماً تحت سطح الماء.

أهمية تعلق على إنجاز مثل هذا العمل الذى سيوفر لمصر حماية لتجارتها عن طريق إنشاء بحرية عسكرية، ذلك أن هذا الخليج، على الرغم من الحماية الطبيعية المتوفرة له، يمكن أن ينال حماية أكبر عن طريق أرصفة حاجزة للأمواج، وعن طريق منشآت أخرى على شطآنه، بل وكذلك على نقاط مختلفة على خط الشعب الصخرية التى تحيط بمدخله، وبوسع الطبيعة الجيرية للسلسلة التى تمتد بطول الساحل الجنوبى الشرقى، أن تسهل إنجاز مثل هذه الأعمال الأخيرة.

وتجعل صعوبات ممرات الخليج مما لا مناص منه اللجوء إلى معونة المرشدين الساحليين لكل سفينة تريد الدخول إليه، ومع ذلك فإن الطقس القاتم واضطراب البحر الذى ينتج عنه لا يسمحان فى معظم الأحوال للمرشدين البحريين بالاستجابة لنداء الإشارات. ويمكن علاج هذا العيب بانشاء منارات على الشاطىء، ويتمثل ذلك فى بناء بعض الأبراج المرتفعة لحد يكفى كى تلمحها السفن على بعد فرسخين وهى فى عرض البحر؛ ويمكن لهذه الأبراج أن تستخدم فى نفس الوقت

كمنارات ونقاط حصينة وفنارات، ذلك أن الحاجة ماسة لمضاعفة الضوء المخصص لتأمين الملاحة أثناء الليل، حيث إن الساحل منخفض وخطير بسبب الترسيبات التى تتم على شاطئه.

٣- أما الميناء القديم، الواقع عند الطرف الشرقى للخليج فيحده الفضاء الدائرى الواقع بين رأس التين والساحل فى الجنوب، وتجعله مرتفعات شبه جزيرة الفنار كلية فى حمى من نوائب رياح الشمال الغربى وكذا رياح الشمال والشمال الشرقى، تلك التى تهب بعنف وانتظام، على نحو ما، على شواطىء مصر. وهذا الميناء فسيح وعميق، والرسو مضمون فيه، وتستطيع أكبر السفن التجارية أن ترسو هناك على مسافة من الأرض تعادل نصف طول قلسها (حبالها أى حوالى ١٠٠ متر فقط)، وفى نفس الوقت، فقد يكون من السهل، عن طريق بعض الأعمال الفنية وبعض المنشآت البحرية الأخرى، جعل هذا الميناء، واحدا من أصلح الموانىء، مثل ما هو، طبيعياً، واحد من أجمل موانى العالم. وقد عرفنا

عن طريق المجسات أن الفرقاطات والسفن الحربية تستطيع الرسو فيه، وقد كان دخوله فيما مضى محرما على السفن الأوربية، ونحن نأمل ان يكون الباب العالى الآن أكثر استنارة وإدراكا لمصالحه، فيأمر بفتح هذا الميناء منذ الآن لتجارتنا، وكذلك لتجارة الدول الأوربية الأخرى[1].

٤- ويتكون الميناء الجديد، أو الميناء الشرقى، من خليج صغير شبه دائرى تبلغ فتحته من جهة الشمال ١٧٨٩ متراً (٩١٧ قامة و ٥ أقدام)، وهو بالمثل محصور بسلسلة من الشعب الصخرية أو الصخور التى لا تبلغ مستوى سطح الماء، ويقلل هذا من اتساع الممر القابل لمرور السفن إلى حوالى ٥٠٠ متر، وحيث هو مفتوح كلية أمام رياح الشمال والشمال الشرقى فليس بإمكانه أن يستقبل إلا بعض الفرقاطات والسفن الحربية الصغيرة.

---

(١) للتعرف على موانيء الأسكندرية يمكن الرجوع إلى الـ ١٢ لوحة من أرقام ٨٥ إلى ٩٦ وذلك بخلاف ورقتين للخرائط. انظر الدولة الحديثة، المجلد الثانى.

ويبدأ ممر هذا الميناء على مسافة قلس (القلس هو حبل السفينة ويبلغ طوله ٢٠٠ متر) إلى الشرق من حصن الفنار ومن صخرة المقدمة، التى تسمى الزمردة والتى يمكن الاقتراب منها بشدة (دون خطر). ويبدأ الرسو عند هذه المسافة مع الاتساع إلى جنوب الجنوب الشرقي للفنار، وتضطر السفن التجارية التى لا تستطيع أن تلقى رواسيها إلا عند هذه السلسلة، إلى الحصول على هلبين لكى تقاوم دفع رياح الشمال والشمال الشرقى، وهذه كما سبق القول كثيرة الهبوب، وكثيرا ما يؤدى عنف هذه الرياح إلى تحطيم السفن التى تقاومها لتهوى إلى القاع. وفى حالات الطقس المثقل والقاتم فى الشتاء، لا تستطيع السفن أن تحتفظ بتوازنها فتضطر للذهاب إلى الميناء القديم لترسو فيه.

ويبدو الميناء، الذى يسهل الدخول إليه والجرى منه للوهلة الأولى فسيحا، ولكنه على وجه العموم ضحل العمق، تحده شعاب من الصخور فى مستوى سطح الماء توجد حتى منتصفه، وهو فضلا عن ذلك يغص بالرمال والأحجار التى

تلقى بها منذ قرون السفن التى ترسو هناك، كما أن قاع الميناء الصخرى يجعل من الرسو أمراً خطراً بعض الشىء، وتضطر السفن وهى فيه أن تبقى كابلات رسوها عائمة حتى لا تتعرض للقطع بواسطة القاع الصخرى أو الحجرى الذى يسير موازيا لكل خط الرسو. ويعود انسداد هذا الميناء، وهو الذى قد كان فيما مضى عظيم العمق، على نحو كبير إلى الرمال التى تنقلها إليه دون انقطاع تيارات البحر التى تتنوع تبعاً لضعف واتجاه الريح، وكذا إلى تيارات مياه الفرع الغربى للنهر فى أوقات الفيضان، كما تم كذلك بفعل تفتت الصخور الجيرية للساحل الغربى، الأمر الذى يحدث بفعل الحركة المدمرة للبحر.

٥- أما حركة مد البحر وجزره فهى ليست ملموسة، كما أنها ليست دورية على الإطلاق على سواحل الأسكندرية كما هو شأنها فى كل البحر المتوسط، وهى ترتبط بالرياح أكثر من ارتباطها بأى شىء آخر محسوس ودائم، ولا يبلغ أقصى ارتفاع لهذه الحركة التى تتم عند محاور الرياح القادمة من الغرب والشمال الشرقى لأكثر من ١٨ إلى ٢٤ بوصة (٤٩ - ٦٥ سم).

وبعد أن ذكرنا كل ما ينبغي أن نعرفه عن الممرات والرسو في الخلجان وفى ميناءى الأسكندرية، سنتناول الأرض، ونجتاز خرائب المدينة التى سقطت من جديد، وربما لعدة قرون، بين تراب مقابرها، حين أفلتت من سيطرة الفرنسيين، تلك السيطرة التى كان يمكن لهذه المدينة في ظلها أن تأمل فى بعث جديد.

٦- يحمى مدخل الميناء الجديد، الذى لم يكن مسموحا للسفن الأوربية قبل حملتنا بالرسو إلا فيه وحده، حصنان بنيا فوق الرءوس التي ينتهى بها شكله شبه الدائرى، وهما: حصن الفنار فى الغرب، وحصن المنارة Pharillon فى الشرق.

أما حصن الفنار، فعبارة عن سور محصن تحصيناً حديثاً، ويضم برجاً مربع الشكل[١]، بنيت على جوانبه أربعة أبراج صغيرة، تعلو سطحها منارة بها فانوس توقد فيه النار

---

(١) انظر ارتفاع هذا الحصن باللوحة ٨٥، الدولة الحديثة، المجلد ٢، ويقدم هذا المنظر الذى ندين به للمسيو سيسيل Cécile دقة كبيرة فى التفاصيل.

ليلا[1]، وقد شاهدت فى حجرات هذا الحصن الشديدة الارتفاع أكواماً من السيوف والأسلحة الأخرى التى بليت تماماً بفعل الصدأ، والتى جعلتنا أشكالها والعلامات التى تحملها ندرك بأنها تعود إلى الصليبيين، وبلا جدال، فإنها تعود إلى صليبيى حملة لويس التاسع البائسة.

---

(١) حدد علماء الفلك التابعون للجيش الفرنسى من فوق حصن الفنار موقع مدينة الأسكندرية. ويعود إلى هؤلاء الفلكيين أنفسهم نتائج الحسابات التى قامت على أسس حساب المثلثات والتى استخدمت فى تشكيل خرائط الأسكندرية، وإليكم هذه النتائج:

المسافة من الفنار:
........إلى الشيخ (العجمى) ١١,٧٢٨ م
........إلى العمود ١٠,٩٣٦ م

المسافة من الشيخ (العجمى):
........إلى خط الزوال ٩,٢٢٨ إلى الغرب
........إلى الرأس ٧,٢٤٠ إلى الجنوب.

أما ملاحظاتهم على البوصلة فقد أدت إلى النتائج التالية:

درجة الميل إلى الغرب : ٠ ٦ ١٣
زاوية الميل : ٠ ٣٠ ٤٧

ملحوظة: عبرنا عن مجسات الموانىء، التى يعود الفضل فى الحصول عليها إلى عناية السادة ضباط البحرية، ومهندسى الطرق والكبارى، بحسب مقياس القدم الفرنسى.

ويتم الاتصال بالفنار عن طريق جسر ضيق يحميه طريق مغطى ومسنن، طوله ٥٥٠ متراً. ويكاد هذا الجسر الذى بنى فوق سلاسل صخرية يستوى فوق سطح الماء وعلى صخور ضخمة وقطع مفتتة من الأعمدة الجرانيتية، رميت وتكدست بشكل أفقى، وتخترقها بعض القناطر الصغيرة التى نفذت بعرض الطريق، والتى تؤدى إلى تحطيم وإضعاف قوة الأمواج التى تندفع لتصطدم بها فى عنف، بواسطة رياح الغرب والشمال الغربى، لكن هذه الفتحات الصناعية يعيبها أنها، عندما تترك مياه العرض تتدفق إلى الميناء الجديد، تسمح بمرور كمية كبيرة من الرمال إلى الميناء، مما يساهم فى الإسراع بإغلاقه (نتيجة تكدس الرمال فيه).

٧- أما الزمردة، أو الماسة، فهى صخرة بمستوى سطح الماء، تقع بالقرب من حصن الفنار وإلى الشمال منه، وتكون مكشوفة فى الأوقات الهادئة، ويلاحظ أن على سطحها آثار مبان قديمة، وتحيط بها قطع من الحجارة شذبتها يد الإنسان، وقد فسر ذلك بعض الرحالة بأن هذه الصخرة كانت

تستخدم فى الأصل كقاعدة للفنار القديم، وإن كان سطحها لا يبدو مطلقاً أنه كان ممتداً لهذا الحد، وقد عرفنا مما أوضحته المجسات أن مياه البحر فى كل مكان من حول هذه المنطقة، شديدة العمق لحد كبير.

٨- أما شبه جزيرة الفنار، والتى تسمى بالعربية روضة التين - إذ كانت تزرع هناك بنجاح كبير أشجار التين التى تنتج أفخر الثمار - فتغطى الميناء القديم بطول يبلغ ٢٦٥٠ متراً بالاتجاه نحو الجنوب الغربى، وتربتها الملحية الفاصلة ليست سوى صخرة جيرية يبهر ويؤذى العين لونها الأبيض الذى تجعله الشمس باهراً على الدوام، وكل شبه الجزيرة هذا محاط بشعب صخرية فى مستوى سطح الماء، وبخاصة إلى الغرب من جسر حصن الفنار. وترى هناك كذلك بقايا مصانع قديمة ومبان أخرى من الطوب والأسمنت أمكنها أن تقاوم تكسر أمواج البحر، فى الوقت الذى أمكن لهذه الأمواج أن تحدث دماراً فى صخور هذه الشعب.

ويدافع عن الرأس الواقع إلى جنوب غرب شبه الجزيرة

هذه، والذى لا يمكن الاقتراب منه، بطارية قريبة تتسمى باسم رأس التين. وهناك حصنان آخران لهما طابع عربى يحميان الميناءين من الداخل. ويوجد بالقرب من الميناء القديم وإلى الشمال الغربى منه لسان من المياه المالحة، ينتج بشكل طبيعى ملحاً شديد البياض، وإن كان له مذاق أكثر لذوعة من مذاق الملح البحرى العادى.

وهذا الجزء من شبه الجزيرة الذى يتوازى مع أرض المدينة الحديثة مخصص فقط لمقابر المسلمين. وقد حددنا على الخريطة، بواسطة خطوط صغيرة سوداء وممتلئة، المدافن الخاصة بالعائلات، وهذه تشكل أضرحة من الرخام الأبيض أو من الحجر الجيرى، بنيت فى بساطة تتفاوت درجتها، وتتفاوت كذلك درجة تزيينها بالرسوم والكتابات.

٩- وبعد أن يجتاز المرء حى المقابر هذا، ينفذ إلى خل المدينة الحديثة التى تفصل بين الميناءين. وقد بنيت ه المدينة فوق كتلة من الرمال تكونت حديثاً ونتجت عن راكم الرمال الذى سبق أن تحدثنا عنه. يقول المسيو

دىمايبه M. de Maillet، الذى أقام بمصر أربعين عاماً بوصفه قنصلا لفرنسا :"هكذا كانت تتم هذه الترسيبات، بحيث إنه فى ظرف مدة ٢٦ عاماً، أى من ١٦٩٢ إلى ١٧١٨، أصبح ارتفاع هذه الترسيبات يبلغ أربعين قدماً أمام منزل القنصلية الذى كنت أقيم فيه حتى أن الناس قد ابتنوا لأنفسهم بيوتاً فوق تربة هذا الشاطىء الجديد". وقد امتدت حركة الترسيب هذه لأبعد من ذلك بكثير داخل الميناء، حتى أصبحت الرمال تهدد بغزوه كلية فى مدى أقل من قرن واحد.

ولا تضم هذه المدينة أى مبنى له أهمية، وتمتلىء مساجدها الرئيسية التى يبلغ عددها من ٢٥ إلى ٣٠ مسجداً، وكذلك الوكالات والمتاجر العامة والبيوت الخاصة، والأرصفة هناك، بأبدان من أعمدة من الحجر الجيرى أو الرخام أو الجرانيت أو الألبستر. وتوجد عليها نقوش قديمة، وهى مأخوذة من قصور قديمة خربة. وقد اكتفينا بالإشارة بالحروف فقط كى نبين على الخريطة مكان المنشآت المتصلة بخدمة البحرية والإدارات العامة، وليس هناك من بين كل هذه

المنشآت، منشأة واحدة تستحق وصفا خاصاً. وإذا ما استثنينا تصميم الوكالات، فإن البناء والتوزيع الداخلى للبيوت بالغ السوء ويستعصى على الفهم. ولا تشكل واجهات البيوت إلا واجهات ملساء تميل للبياض وتخترقها نوافذ صغيرة تغطيها تقفيصات من الخشب ذات مصلبات ضيقة. أما شوارعها الضيقة، غير المرصوفة، والتى ليس بها أى مجرى لتصريف مياه المطر فتظل متربة أو موحلة حسب الطقس. ولا نشاهد هناك حركة إلا باتجاه الأسوار أو الأحياء التجارية، وباختصار، فكل شىء يساهم فى إعطاء المدينة مظهرا حزيناً وطابعاً رتيباً فى نظر كل أوربى، تجذبه إلى هذه المنطقة من العالم، التجارة أو حب السياحة.

وهذه المدينة محرومة بشكل طبيعى من المياه الحلوة كما سنوضح ذلك فيما بعد. وتستطيع آبار المدينة، التى تمدها بالمياه والتى ترتبط بمساجدها العشرين أن تحتوى على ١٥ر٤٠٠ حمولة جمل، وتقدر حمولة الجمل الواحد بـ ٢٠٠ بنتة (البنتة = ٥٦٨ر. من اللتر) تزن ٤٠٠ لبرة أو ١٩٥ ك ج

و٨٠ ديكا جرام (ديكا جرام = ١٠ج)، ويمكن لهذه الكمية أن تكفى الاستهلاك لمدة ١٢٨ يوماً أو أربعة أشهر لثمانية آلاف نفس يشكلون تعداد سكانها عادة، وتمتلىء هذه الآبار سنويا حتى نصفها عن طريق مياه الأمطار التى يعتمد عليها، أما النصف الآخر فيجىء عن طريق نقل المياه.

وفضلا عن هذه الخزانات العامة، فإن لكل منزل خزانه الصغير، يعمل المالك على ملئه بواسطة القرب المحمولة على ظهور الجمال أو البغال أو الحمير، كما توجد هناك أيضاً آبار قليلة العمق، تستخدم مياهها التى تتفاوت درجات ملوحتها فى الأعمال المعتادة، وتقدم بعض هذه الآبار مياهاً صالحة للشرب. ويضطر أكثر الأهالى فقراً، وهم أولئك الذين لا يمتلكون فى منازلهم آباراً أو خزانات للمياه، للذهاب للحصول على المياه اللازمة لاستهلاكهم اليومى من الخزانات الكبرى فى المدينة القديمة.

ولا توجد فى هذه المدينة أية طاحونة تدار بالمياه، وثمة طاحونة هواء تقع على شط الخليج إلى الشمال من شبه جزيرة الفنار، بنيت منذ حوالى ٢٠ إلى ٣٠ عاماً على يد واحد من أبناء رودس، وهى الطاحونة الوحيدة من نوعها فى كل

مصر. وقد أنشأنا نحن طاحونتين من هذا النوع فى ضواحى القاهرة. ولتفادى سوءات هذه الماكينات يمتلك كل فرد غنى فى بيته طاحونة تدور بواسطة الخيول أو الحمير، وتخصص بعض هذه الطواحين للخدمة العامة. ويمتلك أكثر الأهالى فقراً لاستعمالهم الخاص طواحين ذات ذراع (رحاة) تديرها عادة نسوة لا يقمن عادة بأى عمل آخر، وهن يقمن بعملهن هذا حتى وقت متأخر من الليل.

١٠- لا يمكن تحديد فترة بعينها أنشئت فيها هذه المدينة الحديثة، فقد بنيت وسكنت من جهة بمجرد أن شكلت أكوام الرمال ما يبلغ مرحلة الردم، ومن جهة أخرى، عندما كانت الحروب المدنية والدينية، أو تلك التى تشنها الدول الأجنبية، تنشب مسببة فى المدينة القديمة دماراً يدعو إلى هجرها بشكل جزئى، ولا يعود أكبر اتساع حدث بالنسبة لهذه المدينة إلا إلى منتصف القرن السادس عشر، بعد بضع سنوات من هزيمة مصر على يد سليم الأول.

وينبغى أن نختم ذلك بمقتطف من عند جان ليون

الأفريقى Jean Léon d 'Afrique [1]

١١– ويوجد على شاطىء الميناءين بعض الجدران وبعض الأرصفة البحرية لتسهيل عمليات الإبحار، وقد بنيت هذه المنشآت فى الجزء الأكبر منها من أجزاء من أعمدة مكدسة، أما المحال والمبانى الأخرى المرتبطة بخدمة ورش إصلاح السفن، فإن حالة الاهمال والخراب التى توجد عليها هذه المنشآت، لتجعل المرء يتعرف على روح اللامبالاة من جانب الحكومة التركية، التى تركت كل شىء يتآكل وينهار دون ترميم أو صيانة.

---

(١) يقول جان ليون الأفريقى الذى كان فى جولة فى مصر عام ١٥١٧ وهى نفس السنة التى هزمت فيها على يد سليم الأول: إن المدينة العربية، وهى التى تشغل جزءاً من موقع المدينة القديمة، كانت فى هذه الفترة لا تزال مزدحمة بالسكان. ويضيف هذا الرحالة: إن كل بيوتها كانت تنهض فوق خزانات. وكان يطلق على الميناء الجديد اسم مرسى السلسلة.

ويوجد بالمدينة جبل مرتفع شكله غير طبيعى، وهو مغطى ببقايا فخارية، ويوجد على قمته برج أو مرصد.

Collection de Ramusis en 3 vol t. Ier.

١٢- وقد بنيت فى الأسكندرية بعض السفن التجارية الكبرى، وسفن الكرافيل (مركب سريع بثلاثة صوار أو أربعة) وهى نوع من الفرقاطات التركية المزودة بـ ٤٠ إلى ٥٠ مدفعاً، والمراكب التجارية التى تقوم بتجارة الشط (أى نقل البضائع بين المدن الواقعة على الشط) بين رشيد ودمياط عن طريق مصبى النهر[1].

أما طبقة السكان التى تعمل فى خدمة البحرية فتسكن شواطىء الميناءين وبالذات الشواطىء الواقعة إلى الجنوب من شبه جزيرة الفنار والمخصصة للإنشاءات البحرية. أما أهل الأسكندرية الذين يعملون بالصيد أو بتجارة الشط فهم بحارة شديدو المراس، وهناك من بينهم سباحون مهرة، وكذلك-بصفة خاصة - غطاسون ذوو مهارة كبيرة، وتروى عنهم حكايات تثير الدهشة.

---

(١) نستطيع أن نرى فى دراسة عن القناة التى تربط بين البحرين مقالا عن الملاحة في النيل (جـ ٢ فصل ٦، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ١٢٣)، ونجد فيه وصفا لمختلف أنواع السفن التى تبنى فى مصر.

١٣- كان تعداد شعب الأسكندرية أثناء فترة سيطرتنا على مصر، يبلغ حوالى ثمانية آلاف نفس، وقد تناقص إلى سبعة آلاف نفس فقط عند جلائنا. ويتكون هذا الشعب من مصريين خلص، ومن أتراك وعرب ومغاربة وأروام وسوريين ويهود، ومن بعض المسيحيين من الأوربيين. وإنه لأمر مثير للفضول حقاً، أن تنظر فى ظل الأسواق أو فى الأحياء التجارية، إلى تجمع حشد كبير من الناس، ينتمون إلى جنسيات مختلفة، تجمعهم فى سلام مصالح العلاقات التجارية، لتفرقهم - هى نفسها - فى ضجة عشر مرات وربما عشرين مرة فى اليوم الواحد. إن المرء لا يمكنه إلا فى لوحة حية أن يقدم العناصر التى لا نهاية لها، والتى هى بصمات الطبيعة على المكان بمثل مالها من بصمات كذلك على حركة جسم الانسان، وفى هذه اللوحة الحية فقط يمكن أن نتبين كذلك الاختلافات الخِلْقية والخُلُقية، التى يضيفها الطقس والتعليم والدين، إلى طابع الإنسان وإلى آرائه ووجوده.

إننى لن أحاول هنا أن أقدم هذه اللوحة؛وذلك لأن مثل هذه اللوحة ستكون ناقصة. طالما ظلت محرومة من الألوان التى يتطلبها مثل هذا النوع من اللوحات، إذ إن أقوى الخطوط لن يكون بمقدوره أن يعوض غياب الريشة، ولو أننى حاولت مجرد المحاولة لخرجت عن الإطار الذى ينبغى أن أحصر نفسى بداخله.

١٤- وسأمسك كذلك عن الحديث عن الإدارة المدنية وعن القوة العسكرية للحكومة التى تسهر على حماية أمن ووجود سكان هذه المدينة، وسأكتفى بالقول بأن المؤسسات التى كانت تنشغل على وجه الخصوص بالإدارة المدنية لمصر، كانت ترتبط بالدين فيما مضى، وأن الأمور بهذا الخصوص قد ظلت على حالها، فلا يزال القرآن حتى اليوم بالنسبة للمفتين (مفتى) والقضاة ورجال الدين هو الكتاب المقدس، الذى يشكل مجموعة القوانين ويضع قاعدة التقاليد والعادات. أما عن القوة العسكرية، فهذه لم تكن فى معظم الأحيان سوى سند للمساوىء الظالمة السائدة، إذ لم يكن يسودها اعتدال عاقل،

كما كانت تفتقد - على وجه الخصوص - إلى النظام الصارم.

١٥- ويمكن القول بأن تجارة الأسكندرية اليوم لا تشتمل إلا على تصدير الحبوب والأرز والنطرون من مصر، فى مقابل بن الجزيرة العربية وبعض بضائع من الهند تصل إليها عن طريق البحر الأحمر. وعن طريق موانى هذه المدينة تتبادل مصر وأثيوبيا الأصواف والحراير والآنية الزجاجية وأشياء أخرى، من مارسيليا وليفورنيو والبندقية والقسطنطينية وموانى الشرق الأخرى.

وقبل مجيئنا، كانت الأسكندرية، التى ينبغى ألا ننظر إليها اليوم إلا كمستودع للبضائع، تضم حسبما يذكر المسيو أوليفييه Olivier :

٨٨ مسجدا من بينها ٤٦ مسجداً من الدرجة الأولى و ٤٢ من الدرجة الثانية.

٢٠٠ نول لصنع المنسوجات الحريرية الخفيفة والخاصة بملابس الطبقة الميسورة من كلا الجنسين.

٤٠٠ نول لنسج قماش التيل المسمى مغربين لصنع القمصان التى يرتديها أبناء الطبقة الشعبية.

٥٠ نولا لصنع منسوجات صوفية خشنة لملابس العربان.

٣٠ مصنع صابون تستورد الزيوت اللازمة لها من المورة وكريت وسوريا. ويصنع هناك أيضا الجلد المراكشي الأحمر، وهذه جلود ثمينة بالغة الجودة وتحظى بإقبال كبير في القاهرة ومدن مصر الأخرى وفي داخل أفريقيا.

١٦- وطقس الأسكندرية صحي إلى حد كبير؛ وعلى الرغم من شدة حرارته صيفاً فإنه يكون معتدلا عن طريق نسيم الليل؛ أما ندى المساء، وعلى وجه الخصوص في فصل الرياح الشديدة فيحدث في هذه المدينة، وذلك شأنه في كل مناطق مصر الساحلية، رطوبة ملحية تخترق مسام الأجسام. وشتاء الأسكندرية غزير المطر؛ وفي هذا الفصل الرطيب تظهر الأمراض الموسمية بدرجات متفاوتة[1] ، ويقول سترابون

---

(١) كان على الجيش أن يلاحظ بمزيج من الدهشة والقلق تلك الخسارة التي لحقت بنا والتي كلفتنا ١٦٥٠ رجلا من حامية الأسكندرية في أثناء الشهور الثلاثة لأول شتاء قضيناه في هذه المدينة أي في ديسمبر ١٧٩٨ ويناير وفبراير ١٧٩٩ في حين لم يصب الطاعون إلا عدداً ضئيلا من السكان. ويرى بعض الرحالة وهم يتحدثون عن أسباب تأصل الطاعون في مصر، أن هذا المرض ليس متوطناً على الإطلاق في مصر، وأنه لايأتي إليها إلا عن طريق سفن قادمة من =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهويتحدث عن طقس هذه المدينة: "يلاحظ بوضوح أن هواء

= القسطنطينيةأو أنه يأتي من داخل أفريقيا، وأعتقد أن كبار الأطباء الضباط في الجيش وهم الساده ديجينيت des genettes ، كبير الأطباء، ولارى Larry ، كبير الجراحين، وسافارسيSavaresy ، وفرانكFrank ، وبالمBalme وهم ضباط أطباء عاديون.. وكذلك آخرين من الذين عالجوا هذا المرض في مصر، والذين نشروا عنه دراسات هامة لا يشاطرون هؤلاء الرحالة هذا الرأى. لماذا لانعتنق رأى سترابونStrabon الذى نجد فيه الأسباب معروضة بطريقة واضحة، وبسيطة، وطبيعية للغاية. فهل العقل الانسانى لا يسير فى نسق منتظم فيكون عليه أن يقبل على الاطلاق آراء فى قرن ما ليهدمها وينقضها بآراء جديدة فى القرن الذى يليه؟ ومع ذلك فيمكننا أن نتفق، بعد أن نكف عن تعميم الأمور، على أن ركود المياه والرطوبة التى تنتج عنها، هى هنا، كما هى فى كل البلدان الحارة، بذرة كل الأمراض المتوطنة والوبائية التى تسيطر هناك باستمرار. فلنتذكر مثلا تلك البلاد التى تمارس فيها هذه الأمراض دمارها: غيانا، سان دومنجو، مصر، هولندا،..الخ، وفرنسا فى الأجزاء الرطبة منها مثل: جرافلين Gravelines وروشفورRochefort ، وسوف نكون على يقين تام بأن هذه الأوبئة قد انتشرت فى كل هذه البلاد عن طريق أبخرة الطاعون، التى تحدثها الشمس فى المياه الراكدة فتترك بعد تبخرها أراضى موحلة، من يستطيع إذن أن يشك فى أن الأوبئة التى تجتاح الحيوانات ليست سوى أنواع من الطاعون تنتج من المياه الراكدة التى تشربها ماشيتنا فى أوقات الجفاف؟ وقد يعترض البعض بأن الطاعون يظهر أيضاً فى صعيد مصر حيث لا تكاد الأمطار تسقط على الاطلاق

المدينة صحى، ويعود ذلك إلى موقعها حيث تلامسها المياه من

= وحيث لا توجد مستنقعات، هذا صحيح، ومع ذلك فقد لوحظ أن الطاعون لا يحدث هناك إلا بعد فيضان غير عادى للنهر، ويكون ذلك بلا جدال بفعل رطوبة الأرض الشديدة، الناتجة عن بقاء المياه فترة طويلة، وعندئذ يكون الطاعون ذا قوة وكثافة مرعبتين، إذ يدمر قرى بأكملها كما حدث فى نفس العام الذى جلونا فيه عن مصر، أى فى عام ١٨٠١، ويلاحظ أن الطاعون فى هذه الحالة يهبط مع النهر إلى مصر السفلى، بينما يحدث فى نوبات الوباء الاعتيادية أن يتخذ الوباء مساراً مناقضاً أى أنه يتجه من البحر إلى الداخل، نحو الجنوب.

وينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا أيضاً أن هذا التتابع الدائم بين الحرارة الشديدة أثناء النهار، والرطوبة الشديدة أثناء الليل، وبخاصة فى فصل الأمطار وفصل الفيضان، يحدث ارتباكاً فى توازن الأمزجة، وأن آثار هذه التغييرات الفجائية والمتكررة تؤدى إلى تحلل الدم، وهو الذى قد أضعفه إلى حد كبير العرق الغزير والمتكرر، وفى مثل هذه الحالة، فإن الجسم- وهو مستعد والأمر كذلك لاستقبال أشد المؤثرات ضالة بسبب الطقس الثقيل فى المساء والمليء بالأبخرة الآسنة فى النهار – يسريه عن طريق كل المسام، ذلك أن الدم مثله مثل الهواء والماء، إنما هو سائل ذائب يفسد ويتحلل بسبب الركود، وفى نفس الوقت فاننى أبعد ما أكون عن أن أنكر أن الطاعون يمكنه فى بعض الأحيان أن يأتى إلى مصر من الخارج، وبخاصة من داخل أفريقيا، ذلك أنه، إذا كان هذا الوباء يحدث فى كثير من الحالات نتيجة للاحتكاك، فلابد إذن أن نوقن أن الرياح، وهى المركبات التى تركبها الأبخرة الضارة والمهلكة التى يغص بها الجو، تنقله سريعاً من منطقة لأخرى؛ وينبغى ألا تدع سرعة =

جهتين، كما يعود كذلك إلى الفوائد التى تجنيها من فيضان النيل، ذلك أنه فى كل المدن الواقعة على شواطىء البحيرات، لا يستنشق الإنسان أثناء حرارة الجو الشديدة إلا هواء ثقيلا وخانقاً، ينتج عن الأبخرة التى تحدثها الشمس، كما أن الأوحال تظل لمدة طويلة على حواف البحيرات، مما يؤدى إلى انبعاث روائح مستنقعية تنشر فى الطقس بذور الأمراض ويتولد عنها الطاعون. أما فى الأسكندرية فإن النيل الذى

=انتشار هذا الوباء، التى حصدت فى فترات عديدة سنوات ١٧٦، ٢١١، ٢٥٢، ٥٣٩، ٥٤٢، ٥٥٨، ٧٤٧، ١٠٠٦، ١٣٤٨ من العصر الحديث ما يقرب من ثلث السكان فى أوربا، وهددت بقية الكرة الأرضية، ينبغى ألا تدع مجالا للشك حول هذا الموضوع، فمن الممكن أن ينتقل واحد من هذه الطواعين، وبخاصة إذا كان قادماً من داخل أفريقيا مع سرعة الرياح إلى مصر وسوريا، ومن ثم ينتشر فى أوربا. إذن فإنى أوافق على أن الطاعون متوطن ووبائى فى وقت معاً، أو يأتى من تلقاء نفسه حسب حالة الطقس، فى مصر بالذات. إن مارآه سترابون هو الذى قادنى إلى الوصول لهذه الاعتبارات الفيزيقية عن الطاعون، كما أنه يتطابق مع الرأى الذى سقته هنا تبعاً للملاحظات التى قمت بها والتى كنت فى وضع يسمح لى بالقيام بها، فى المرتين اللتين أصبت فيهما بهذا المرض فى مصر، واللتين لم أفلت منهما إلا بفضل الطاقة والحيوية اللتين يهيئهما صغر السن، وكذلك بفضل طبعى المتفائل وكذلك بفضل نوبات العرق الغزير التى كانت تأتينى فى الوقت المناسب.

يفيض فى كل عام فى بداية الصيف يقوم برفع مياه البحيرة، وبذلك لا يدع الأجزاء الموحلة مكشوفة فلا تصعد منها أبخرة ضارة، وعندئذ تجلب الرياح العنيفة التى تهب من الجزء الشمالي، من أعالي البحار، النسيم المنعش إلى سكان الأسكندرية فيمضوا الصيف على نحو طيب".

وبالنسبة لى، فليس بالإمكان أن نقول شيئاً أكثر من هذا تحديداً ودقة، وعلينا أن نضيف قبل أن نختتم هذه الفقرة للجغرافى الإغريقي أن امتلاء بحيرة ماريوتيس (مريوط) يظل داخل حدود صحيحة، طالما هو يغطى الأجزاء الموحلة من حوضها الجاف؛ وكما سبق أن قلنا فى دراستنا عن البحيرات المصرية، الجزء الخاص ببحيرة مريوط، فإن هذا الامتلاء هو صاحب الفضل فى المباهج الصحية التى كانت تنعم بهاهذه المدينة قديماً. لقد قلنا قديماً إنه يبدو أن الأوبئة التى تخرب فى معظم الأحيان هذه المدينة، كما تدمر مصر بشكل عام، كانت فى ذلك الوقت أقل تردداً أو أنها كانت أقل انتشاراً عنها الآن، ومنذ أن سقطت المنطقة تحت سيطرة شعب تجعل

منه معتقداته الدينية يتدنى عن القدر الذى لا فكاك منه بخصوص مصير الإنسان، ولا يتخذ أدنى حيطة أو وقاية.

وبعد أن عالجنا كل ما يهم أن نعرفه عن المدينة الحديثة، نواصل الآن مسيرتنا ودراستنا ونحن نطالع بعيوننا خريطة موقعها القديم.

١٧- عندما نترك أرض الروم فى المدينة الجديدة لكى نصل إلى القارة القديمة، فإننا ندخل عن طريق أبواب عالية إلى سور واسع حصين لم يعد يضم سوى بقايا الأسكندرية القديمة. وهذه الأطلال الأثرية تجذب عموماً فضول الناس؛ ويبدو أن النفس تجد فى ظل الآثار القديمة للأجيال الماضية بعضاً من جمال الذكريات المليئة بالشجن تذكر بها هذه المبانى، فمظهرها الصامت يبث فى الروح انفعالا خفيا يهزها ويتسامى بها، كما أن الإنسان عندما يتأملها فإنه يفارقها بصعوبة ويعود إليها بشوق، لكن آثار الأسكندرية على العكس من ذلك لا توحى إلا بحزن مرير وعميق، إذ هى لا تقدم إلا

صورة بشعة وكئيبة للدمار التام الذى يصيب الإنسان ومنجزاته. وفى الواقع، ففى فراغ فسيح، يحيط به سور مزدوج، تعلوه أبراج عالية، فإن الأرض لا تغطيها إلا أطلال المبانى القديمة المدفونة تحت تلال من الأنقاض، والأعمدة وتيجان الأعمدة المهشمة أو المقلوبة، وقطع متماسكة من جدران منهارة، وقباب مدفونة، وتكسيات الجدران التى تآكلت أحجارها الشوهاء بفعل رطوبة وملح وأحماض البحر..فى كل مكان يجد المرء آباراً وخزانات نصف مطموسة، أو حفراً عميقة يستخرج منها السكان أحجاراً جيرية لا تزال تحمل آثار عمل الإنسان، والتى حولها الإنسان بدوره إلى مجرد جير؛ فى كل مكان لا يسير المرء إلا على بقايا فخار، وزجاج، ومخلفات معدنية، وإلا على فتات من كافة أنواع الرخام، ووسط أتربة تميل للبياض ترفعها الرياح وأقدام المارة لتدور بها فى شكل دوامات.وسط هذا الفوضى يبدو هذا البعض من المساكن المنعزلة، والتى بها المقابر، وكأنها لم تنهض وسط هذه الخرائب إلا لتغطى بظلالها مأوى الموت، وهذه المقابر

التى تتكون من كهوف صغيرة، تضم جثثاً ترقد فوق أرض ترابية، ترابها هو آخر بقايا الإنسان الهش.. فى داخل هذا الفناء تتناثر أتربة وأنقاض مدينة واسعة، نبحث عنها دون جدوى، ونتخبط نحن وسط أسوارها.

١٨- وأول ما يظهر لعيون المسافرين، فى حقل الخرائب هذا، مرتفعان يسمح علوهما، الذى يبلغ من ٥٠ إلى ٦٠ متراً، بأن يستخدمهما هؤلاء المسافرون نقطتى استرشاد عند الاقتراب من ميناء مصر الوحيد. ويحمل أول هذين المرتفعين، وهو الذى يقع إلى أقصى الشرق، اسم هضبة سانت كاترين، وهو الاسم الذى خلعه عليها الفرنجة أو مسيحيو هذه البلاد، أما الآخر فيقع إلى الغرب، وتنتهى قمته ببرج صغير يستخدم مرصدا. ولا يتكون هذان المرتفعان إلا من أنقاض آنية فخارية وأنقاض أخرى يحملها إلى هناك كل يوم سكان المدينة، وتتتوج قمتا هذين المرتفعين، حيث يستطيع البصر أن يمتد إلى بعيد فدق الأرض وفوق الماء، بحصن صغير من

سلسلة الحصون التي تلتف حولهما وتحمى أطراف المدينة[1]

ومن الضرورى ألا يكون هذان المرتفعان قد تكونا إلا منذ

---

(١) كرّم القائد العام الجنرال بونابرت ذكرى اثنين من كبار ضباط الجيش المهندسين، ماتا فى ساحة الشرف، وذلك بأن أطلق اسميهما على هذين الحصنين، فأطلق على الحصن الشرقى اسم حصن كريتانFort Crétin ، وهو اسم كولونيل مهندس قتل فى موقعة أبى قير فى يولية ١٧٩٩. أما الثانى فقد سمى حصن كافاريللىFort Cafarelli ، وهو قائد فى نفس الجيش مات متأثراً بجروحه فى واحدة من عمليات حصار حصن عكا فى سوريا فى ٢٧ أبريل ١٧٩٩، وقد كان كافاريللى، وهو ضابط شجاع بقدر ماهو مهندس بارع، يحتفظ على الرغم من الخسارة التى كلفته إحدى ساقيه فى بداية حصار مدينة مايانس Mayence فى أكتوبر ١٧٩٥، بنشاط يدعوإلى الدهشة وفى نفس الوقت فقد كان مشهوداً له بأحلى الصفات الروحية وبمعارفه المتنوعة والواسعة فى العلوم الفيزيقية، وفى الأخلاق والسياسة، لذلك فقد سبب موته أعظم الأسى للجيش، كما بكاه القائد العام، وكذا الجنرالات والجنود وأعضاء مجمع العلوم والفنون الذى كان كافاريللى بمثابة أب وصديق له فى نفس الوقت فى مصر.

وليس ما أقول هنا هو مجرد عاطفة تذكر فى ذكراه كنوع من الوفاء والعرفان، لكنه شهادة عدل شاء رئيس أركان حرب الجيش، عن طيب خاطر، أن يقدمها لتلك المميزات العظيمة لهذا الجنرال الذى كان أفضل ضباط جيش حملة مصر.

بضع قرون، ويبدو أن المرتفع الغربى، حسبما يذكر ليون الأفريقى الذى سبق أن أوردنا ما قاله قبل ذلك، كان موجوداً أيام سليم (الأول) فى عام ١٥١٧، إذ من المعروف أن هذا السلطان، لكى يعالج الآثار الضارة لجبال الأنقاض التى يبدو أن القاهرة وبقية مدن مصر كانت توشك أن تدفن تحتها ذات يوم، قد أصدر أمرا بنقل كل مخلفات المدن براً أو نهراً إلى مصبات النيل، وسوف نتحدث عن الجانب المفيد الذى قد يكون لهذه التلال (من الأنقاض) والتى تحمل الرياح منها على الدوام أجزاء تسقط فى معظم الأحيان كأمطار من تراب فوق المدن التى تشرف هذه التلال عليها وتغطى جزءاً كبيرا منها.

١٩- هناك شىء ينجذب إليه المرء بأكبر قدر من الاهتمام، ذلك هو تلك المسلة التى يلمحها المرء عند شواطىء الميناء القديم، وقد دفعتنى قمتها المرتفعة فى شكل سهم والتى تجذب انتباه المسافرين لأبدأ وصفى لهذا الأثر، وهو الأثر الأوحد، أو الأكثر كمالا وسلامة من بقايا المدينة القديمة.

إلى الجنوب، وقريبا من أحد أبراج السور، الذى يسمى برج الرومان، وهو يطل على الشاطئ الشرقى للميناء الجديد، توجد مسلتان من الجرانيت، جرى العرف على تسميتهما مسلتى كليوباترا، باسم تلك الملكة الرائعة، آخر سلالة البطالمة التى اضطرت بعد أن اعتلت وحدها عرش خلفاء الإسكندر، أن تهجر مقاليد الحكم، وأن تتخلى عن مباهج حياة وهبتها لغريم أغسطس (أكتافيوس)، وأن تقتل نفسها، بعد معركة أكتيوم.

ومسلتا كليوباترا، هما مسلتان من الجرانيت الشرقى، إحداهما مقلوبة، أما الأخرى فلا تزال تنهض على قاعدتها، وحجما هاتين المسلتين يتماثلان على وجه التقريب، ولكل منهما وجوه أربعة مليئة بالنقوش الهيروغليفية. وقد رسمت نقوش واحد من الوجوه الأربعة للمسلة التى كانت مقلوبة.

ويلاحظ المرء من بين علامات هذه الكتابة الرمزية رسوما مقلدة بشكل بالغ الدقة، ومنقوشة بحروف غائرة لوجوه بعض الحيوانات، منها: الثور، الثعبان، الجعران، البومة، البومة

الصلعاء، السحالى، طائر أبى منجل، طائر اللقلق، البط، وطيور أخرى وحشرات ذات أجنحة لا نعرف عنها الكثير، وبين هذه النقوش الموضوعة داخل إطارات تمثل لوحات سيمترية لا يمكن للمرء أن يخطيء الأعضاء الجنسية للإنسان. ويقول هيرودت حول هذا الموضوع؛ إن سيزوستريس قد أمر بحفر هذه النقوش تحقيرا للشعوب التى كان قد هزمها وجللها بالعار، وذلك عندما أخضعها بدون قتال.

أما مقاييس المسلة المقلوبة التى قمت بقياسها فهى :

الارتفاع حتى القمة الهرمية = ٥٧ قدما (١٨,٥١٦م).

عرض الضلع = ٤ب ٧ق (٢,٣٨٢م).

وعلى الرغم من أن زوايا قاعدة هذه المسلة قد تهشمت بل وتشوهت فقد حسبت عرض الضلع الأدنى لهذا الوجه الذى رسمته ١٠ب ٦ق (٢,٢٢٠م) بينما بلغ عرض الضلع للوجه الملاصق، والذى قام بقياسه المسيو بلزاك ٥ل ٥ب ٧ق

(۲,٤٢٠م)، وهذه الاختلافات فى عرضى الوجهين المتلاصقين لوجوه المسلات الرباعية تبدو موجودة بشكل عام فى هذه المسلات كما تبدو فى جوانب الأهرام، ويلاحظ فى الزوايا الأربع لتصميم قاعدة هذه المسلة أربع فتحات للتعشيق عرضها من ۲۰ إلى ۲٥ سم وهو نفس طول عمقها، وكانت هذه مخصصة بلاشك، كما هو الحال فى المسلات الأخرى، لكى توضع بها ألسنة التعشيق التى ينبغى أن تدعمها عند قاعدتها.

ومن المعروف أن أباطرة من الشرق ومن الغرب قد نقلوا فى عصور مختلفة مسلات مختلفة إلى روما وإلى القسطنطينية[1] . وقد حصرت فى الرحلة التى قمت بها إلى

---

(۱) انظرA ، المجلد الخامس، اللوحتين ۳۲، ۳۳. وقد ذكر فى مؤلف ولسون أن لورد كافانCavan عندما كان يتولى القيادة فى الأسكندرية، قد أمر بعمل اللازم لنقل المسلة المقلوبة فى هذه المدينة إلى لندن، ثم اعترضت تنفيذ هذا المشروع عقبات مختلفة. ويذكر مستر ولسون أن مصاريف النقل قد قدرت بـ ١٥ ألف جنيه استرلينى (تاريخ حملة الجيش الإنجليزى على مصر فى عامى ١٨٠١، ١٨٠٢ تأليف=

روما عام ١٨١٠ حوالى ١٠-١١ من بين هذه المسلات التى ارتفعت بزهو لتتحدث عن أمجاد روما، ومع ذلك فينبغى أن نسجل أن المهندسين الذين أقاموا هذه المسلات قد بددوا ما لها من تأثير عظيم فى النفوس حين أقاموها فوق قواعد لم

=روبرت ولسون، لندن، ١٨٠٢، فى مجلدين، الفصل الثامن).
وحيث إن مسلة الأسكندرية كانت قد أزيلت من حولها الأنقاض تماماً فقد أمكن قياس أطوالها بكل دقة، وكانت كما يلى:

	ل	ب	ق
الجزء الأعلى ابتداء من فجوة اللسان	–	–	٦١
الجزء السفلى تحت فجوة اللسان وداخل القاعدة الخشبية	–	٣	٧
إجمالى الطول	–	٣	٦٨

وإذا ما راعينا طول القدم الإنجليزى بالنسبة لطول القدم الفرنسى فإننا

	ل	ب	ق
نجد أن الطول الإجمالى لهذه المسلة بالقدم الفرنسى	١٦	٦٠	٦٣

أما العرض فكان كما يلى :

	ل	ب	ق
العرض عند القاعدة	٧	٧	٧
العرض عند أضيق نقطة عند القمة	٤,٥	١	٥

(نفس المؤلف، الجزء الثانى، ص ٦٢).
وهذه المقاييس تتطابق لحد كبير مع المقاييس التى حصلت عليها وقدمتها عن نفس هذه المسلة.

تحافظ على النحافة التى كانت لها، فى حين أن المصريين القدماء كانوا قد نصبوها- كما نشاهد ذلك؛ حتى الآن، فى هليوبوليس وطيبة- فوق قاعدة صغيرة يبلغ ارتفاعها من ٢٥ إلى ٣٠ سم على الأكثر فوق الرصيف أو فوق الأرض المحيطة به. وبنفس الطريقة فقد حجبنا جزئياً الأثر الرائع لأعمدة قصورنا حين أقمناها فوق قواعد نزعت عنها - حين قللت من قوة الدعم أو الثبات البنائى الخاص بها - طابعها المزدوج : طابع الجرأة وطابع الأناقة التى ينبغى أن تبدو عليها.

ويصل وزن المسلة المقلوبة التى يبلغ طولها، بما فى ذلك قمتها الهرمية التى بتر طرفها المدبب ٦ ق ب ٦٣، أى ما يعادل ٢٠,٦٢٧م[1] يصل إلى حوالى ٤٥١,٤٦٩ لبرة و ٨٠/١٠٠ من اللبرة

(١) يقدر وزن القدم المكعب من الجرانيت المصرى المسمى بالشرقى بـ ١٨٦ لبرة زنة مارك أى ٩١ ك.ج و ٥ ديكا جرام ويزن المتر المكعب وهو الذى يحتوى على ٢٩ ق و ١٧٤ مم، ٥٤٢٦ لبرة و(٥ح) ٣٦/١٠٠ من اللبرة زنة مارك أى ٢٦٥٦ ك.ج و ٢٤ ديكا جرام. أما مكعب هذه المسلة فيبلغ ٧٧,٣٩ م بما فيها ٢,٧٧ م هى حجم قمتها الهرمية، وقد قدرنا حجمه المذكور قبل ذلك بواقع ٤٩٠ جم للبرة زنة ١٦ أونسة (أوقية).

أى ما يساوى ٢١٩,٠٦٨ك ج و ٤٢٠ . وفى رأيى أنه يمكن
١٠٠
الاكتفاء بسفينة حمولتها ٢٢٥ إلى ٢٥٠ طناً لكى تنقل مثل
هذه المسلات، ولابد لنا أن نستنتج أنهم قد استخدموا لنقل
المسلات الموجودة فى القسطنطينية وروما جسوراً عائمة أو
طوافات لمعاونة السفن الشراعية أو السفن ذات المجاديف
التى قامت بهذه المهمة.

واكتفى بهذا القدر من الحديث عن تلك الآثار التى تتطلب
وصفاً خاصاً وبالذات عندما يكون ذلك داخل إطار الحديث
عن مجموعة المسلات المصرية؛ وأتفحص الآن الأطلال بالغة
الأهمية والتى يحتويها السور.

٢٠- لا يحتوى سور هذه المدينة المهجورة والذى قويت
أجزاء منه بسور ملاصق يعلوه أكثر من مائة برج من أشكال
مختلفة، إلا على جزء من المدينة الإغريقية أو الرومانية القديمة
التى يشار إليها من زمن طويل باسم فناء مدينة العرب، إذ
يظن أنها من عمل حكام هذه الأمة التى ضمت

لامبراطوريتها، الأسكندرية ومصر كلها من اثنى عشر قرنا.
وفى الواقع فإن هذا السور الذى يبلغ محيطه ٧٨٩٣ متراً (٤٠٥٠ قامة) كان فى جزء منه من عمل العرب فى القرن التاسع، وتبدو جدرانه بشكل عام بحالة سيئة. وهذه الجدران مليئة بالثقوب (الطاقات) الصغيرة، وعدد كبير من هذه الأبراج العالية جيد البناء، كما يلاحظ أن بعضاً منها، وبالذات تلك التى تطل على البحر عند الميناءين أو بالقرب من المدينة الحديثة، يعود تاريخها إلى القرون الأولى من تاريخ الأسكندرية. وهكذا شاءت المقادير أن يكون أحد هذه الأبراج، وهو المطل على الميناء الجديد، من صنع الرومان، ولايزال يحمل اسمهم. ويقع هذا البرج إلى الشمال وبالقرب من مسلتى كليوباترا. وهناك برجان آخران يلفتان النظر بضخامتهما ولونهما الحائل، ويقع الأول عند الميناء الجديد مطلا على داخل الفناء (الساحة) حيث يصب مجرى ماء هندسى، أما الآخر فيقع إلى أقصى الغرب، ويطل على الميناء القديم، ويضم بداخله برجاً آخر مركزيا. وهذا البرج المزدوج

الذى تتلامس جدرانه داخلياً عن طريق قبة حلقية (دائرية) شديد الاتساع ، كما أن بناءه بالغ الفخامة. وكان من الضرورى على الأبراج الأخرى أن تخزن المياه الاحتياطية فى أجزائها السفلية؛ وقد وجدنا خزانا جميلاً فى أحد الأبراج التى تشرف على الجانب الأوسط من المدينة الحديثة .

وقد رمم الحصن الواقع عند الزاوية الناتئة (إلى خارج المدينة) إلى الجنوب الغربى من السور، ووضع فى حالة دفاع يخشى معها بأسه لحد كبير. ويشار إلى هذا الحصن باسم الحصن المثلث، نسبة إلى الشكل الذى يميزه. وقد دمر هذا الحصن كلية بسبب النيران التى شبت بمخزن البارود فى حوالى نهاية ١٨٠١. ويقول المستر ولسن الذى ذكر هذه الواقعة فى تأريخه للحملة الانجليزية على مصر، حيث كانت الاسكندرية فى هذه الفترة تحت سيطرتهم، بأن أحداً لم يستطع معرفة سبب هذا الحادث.

وترتفع أبراج السور المبنية على نمط التاكتيك العسكرى القديم، بعظمة فوق الجدران التى كان عليها أن تذود عنها.

وكل هذه الأبراج متوجة بشرفات بارزة تمنع بفعل مراميها من الاقتراب من محيطها. ويكاد يكون لكل الأبراج الموجودة فى الخط الخارجى أبواب سرية أو أبواب خروج تؤدى إلى خنادق. وتختفى هذه الأبواب السرية اليوم- وهى التى كانت ترتفع عتبتها إلى مترين فوق قاع الخنادق - تحت أكداس من فتات الأرصفة وقطع البناء.

ويلاحظ المرء فى جسم جدران السور، وبخاصة فى أسفل جدران معظم الأبراج، عدداً كبيراً من الأعمدة الرخامية والجرانيتية أقيمت بها بشكل أفقى، ويرى أحد أطرافها مطلا إلى الخارج، وسوف أقدم فى الجزء الآخر من هذه الدراسة رقم (٨٩) الملاحظات التى سأوصى بها بخصوص هذا الاستعمال الشاذ لهذه الأعمدة داخل هذه الكتلة الصلبة فى مبانى جدران السور. وقد كانت بعض أجزاء واجهات هذه الجدران، وبخاصة من جهة الجنوب، مغطاة بطلاء من ملاط الجص بقصد حماية دعائمها من أثر الرطوبة البحرية، ومن

التلف الذى ينتج عن سقوط الندى المتواصل على الجزء الساحلى لمصر، وكذلك على هذه الواجهة لجدران السور بالقرب من الزاوية الناتئة إلى جنوب باب رشيد حيث نرى آثار تفتت هذه الأحجار الجيرية[1] .

٢١- ويبلغ عدد الأبواب المنفذة فى جدران هذا السور خمسة أبواب هى: اثنان يطلان على واجهة المدينة الحديثة، واحد يقع إلى الشرق ويسمى باب رشيد، وآخر يقع إلى الجنوب ويسمى باب العمود، وخامس يقع إلى الغرب ويؤدى

---

(١) وجوه حجارة هذه الجدران مغطاة فى جزء منها بتخاريب سوس محفورة بشكل بالغ الانتظام فى كل اتجاه حتى ليعتقد المرء لأول وهلة أنها عمل غير عادى من صنع الإنسان، ولكن عندما نتفحصها جيداً وباهتمام فاننا ندرك أنها تخاريب طبيعية نتجت فيما يقال عن طريق ديدان تقرض الحجارة، بمثل مايوجد نوع منها يقرض الخشب فى الهواء أو فى الماء. وتقليداً لذلك، يلاحظ على سطح بعض الأحجار الجيرية أن نوع الحفر المعروف باسم نخر السوس Vermoulure قد اقتبس واتبع فى نمط العمارة الريفيةrustique بمثل مانراه منفذاً فى أسفل الجدران وعلى الأعمدة والأعمدة الناتئة فى قصرى التويليرى واللوفر فى باريس. انظر فيما يتعلق بطبيعة الديدان التى تقرض الحجارة: Le Journal des Savans de l'annee 1668

إلى الميناء القديم عن طريق البرج الضخم الواقع إلى أقصى الغرب من السور[1] .

وقد أقيمت هذه الأبواب فى الأبراج المحصنة للسور، وقد طمست جدران الأبراج منافذها، وتستخدم هذه الأبواب للإرشاد وللدفاع عن الموقع على طريقة الأبواب السرية فى أجنحة حصوننا، وتغطى الواجهة الخارجية لمصراعى كل واحد من هذه الأبواب، وهى مصنوعة من هيكل قوى من خشب الجميز، بنصال حديدية مثبتة بمسامير مدببة الرءوس ومتعددة الأشكال وإن كان حديدها قد تآكل بسبب الصدأ وأصبح فى حالة من التفتت التام بينما يكاد يكون الخشب قد ظل على حاله، بل وكأنه يكتسب المزيد من الصلابة بمرور الزمن؛

---

(١) لست أدخل فى عداد أبواب هذا السور بابين جديدين فتحهما الفرنسيون: الأول بالقرب من الحصن المثلث المسمى حصن باب المقابر، وهذا ليس سوى ثغرة فى جسم السور، والآخر فى الاستحكام البارز بكورتينة ملحقة بالحصن الأخير بالقرب من الباب الذى يطل على ساحة الباب الجديد، وقد أقيمت هذه الكورتينة الحصينة للدفاع عن المدينة الحديثة أثناء حصار الأسكندرية على يد الجيش الإنجليزى - التركى فى عام ١٨٠١ .

ويمكننا أن نستنتج الأزمنة التى بنيت فيها هذه الأبواب عن طريق الكلمات العربية المكتوبة بخط الكوفة على واجهاتها.

٢٢- ومن بين المبانى التى عثرنا عليها مبعثرة داخل السور العربى الواسع، كانت توجد قرية مجاورة لباب (بوابة) رشيد، وقد دمرت هذه القرية عن آخرها نتيجة للحرب التى دارت فى السنتين الأولى والأخيرة لاحتلالنا لهذه المدينة. أما بخصوص المبانى الأخرى المبعثرة إلى الجنوب الغربى والتى لم تعان مطلقاً من أحداث الحرب، فقد ظلت على العكس من ذلك تمتد فى مساحة واسعة بل ويبدو أن مساحتها قد ازدادت اتساعاً بفعل خرائب المبانى التى تحدثنا للتو عنها.

٢٣- وقد عثرنا بين كثير من الخرائب على أطلال ديرين ومعبد يهودى، وهى منشآت أسستها تلك المذاهب العديدة التى سببت فى هذه المدينة الكثير من الانشقاقات والثورات والآلام والتعاسة فى أثناء القرون الأولى للمسيحية. أما اليهود الذين ينبغى ذكرهم على الدوام، وفى المقام الأول، فى أحداث الحروب الدينية فيحتفظون هناك بمعبد يقع بالقرب وإلى الجنوب من مسلتى كليوباترا، وتقع مقابرهم إلى ماوراء

المدينة العربية، إلى الشرق من برج الرومان، ولايستطيع المرء إلا أن يدرك مدى ارتباط وتعلق هذا الشعب الدائم بعادته القديمة حتى فى الأحجار التى يستخدمها فى المبانى التى تغطى مقابر هذا المدفن.

وبالقرب، وإلى الشرق من هذا المعبد يوجد دير يونانى، هو مقر بطريرك الأقباط (الروم) أى المطران الأول لهؤلاء المسيحيين الذين تشبثوا بوجودهم فى مصر بحكم أصلهم المصرى، بعد أن آلت هذه المنطقة إلى سيطرة العرب والمسلمين.

وإذا مااتجهنا نحو وسط المدينة العربية من جهة الباب الشمالى الذى يطل على ساحة الميناء الجديد، نجد ديراً آخر للمسيحيين الكاثوليك من طبقة الدعاة أى من رجال الدين القادمين من الأرض المقدسة. ولدخول هذا الدير الذى زرته، يصعد المرء أولا فوق أكوام من الأنقاض تحيط به، ويضطر المرء بعد ذلك للهبوط عدة سلمات قبل اجتياز الباب. ويكاد يعتقد المرء أنه يدوس فى داخل هذا الدير على الأرض

الأصلية للأسكندرية، ولست أعرف ما إن كان ثمة أشخاص آخرون يمكنهم أن يقدموا تفاصيل أكبر عن داخل هذه الأديرة، وقد واتتنى الرغبة والفكرة أكثر من مرة للذهاب إلى هناك لقضاء ١٥ يوماً فى هذه العزلة لكى اغترف من هناك معلومات هامة. وإننى لأشعر بشديد الأسف لأننى لم أتصل فى هذه المدينة، كما فعلت فى القاهرة، بهؤلاء الرهبان القائمين بأعمال البر والذين استبقاهم حبهم لدينهم - وهو حب يختلف أشد الاختلاف عن هذه الحماسة العمياء التى كانت لهؤلاء النساك الزاهدين فى أديرة صحراوات النطرون والصعيد - استبقاهم ولايزال، فوق نفس أطلال مدينة المسيحية العتيدة والقوية، وبين شعب لم يعد يحتفظ من بغضائه القديمة إلا بازدراء ماس بالمسيحيين.

٢٤- نميز من بين المساجد أو معابد الديانة المحمدية والتى بقيت داخل الحى العربى مسجدين، يقع أحدهما بالقرب من الباب الذى يقع إلى أقصى الغرب، ويحمل هذا المسجد منذ وقت طويل اسم مسجد (جامع) السبعين، لأنه قد حدث هنا، حسبما يقول الأثر، منذ ثلاثمائة عام قبل المسيح

أن بطليموس بن لاجوس قد أمر بترجمة التوراة العبرية إلى اللغة اليونانية بواسطة السبعين مترجما الذين أرسلهم الكاهن الأكبر إليعازر. ويضم هذا المسجد ذو الشكل المربع والذى تبلغ أبعاد أى من واجهاته ١١٧م X ١٢٦م، فى داخله رواقا له صفان من الأعمدة الرخامية أو الجرانيتية، وهى من بقايا مبان قديمة خربة، وحيث لم تعد تقام فى هذا المسجد منذ وقت طويل الشعائر الإسلامية، فقد رممت جدرانه وأقيم به مربض حصين لمدفعيتنا[١] .

٢٥- ويقع المسجد الثاني ويسمى جامع سان أثناز[*] عند منتصف المدينة على بعد ٢٥٠ متراً إلى الشرق من الدير المسيحى الذى تحدثنا للتو عنه، ويستمد هذا الجامع اسمه من

---

(١) انظر تصميم هذا المسجد فىA من المجلد الخامس، لوحة ٣٧.
(*) جامع سان أثنازهو كنيسة بناها الأسقف ثيوناس (٢٨٢-٣٠٠) بالقرب من الميناء الغربى، ثم أعاد بناءها وزاد من حجمها الأسقف اسكندر، وبقيت حتى نهاية القرن الرابع الكنيسة الكبرى ومقر الأسقف، وكانت هذه الكنيسة هى التى هاجمت فيها الحامية الرومانية إثناسيوس (سان أثناز) وهو على رأس المصلين. وأخيراً حولها العرب إلى مسجد، بعد أن كانت قد فقدت أهميتها بعض الشىء فى القرن السادس حين =

اسم مؤسسه، ذلك أنه قد حل محل كنيسة مسيحية، هى واحدة من الكنائس التى بناها سان أثناز فى مدينة الأسكندرية عند نحو منتصف القرن الرابع، وتبلغ أطوال الواجهة الواحدة من واجهاته ٥٤ X ٦٢.

ومن المعروف أن سان أثناز، بطريرك الأسكندرية، الذى اضطهد فى عهده سان مكاريوس وانسحب إلى صحراوات بحيرات النطرون حيث بنى بعض المغارات (الأديرة) التى تحمل اسمه، قد أصدر فرماناً كنسيا ضد آريوس زعيم المذهب الهرطقى للآريوسيين فى سنة ٣٦٤ من الميلاد، وفى عهد هذا البطريرك تسببت الانقسامات الدينية للدوناتيين والآريوسيين لهذه المدينة البائسة فى انشقاقات طويلة ودامية بنفس القدر الذى أحدثته انقسامات الـ Guelfes والـ Gibelins (*) التى روعت إيطاليا عند حوالى منتصف القرن

= أصبحت كنيسة القيصرون (الكيزايوم) هى الكنيسة الرئيسية. وسمى هذا المسجد بالجامع الغربى أو جامع الألف عمود. (المترجم).

(*) حزبان قويان أحدثا انقساماً كبيراً فى إيطاليا ابتداء من القرن السابع حتى القرن الخامس عشر، وكان الأولون يتبعون البابا بينما يتبع الآخرون الأباطرة الألمان. (المترجم).

السابع[1] .

ويحتوى حرم هذا المسجد الذى لم تطأ أرضه أقدام المسيحيين، فى وسط رواقه على مبنى فاخر من الآثار المصرية القديمة. ولم يكن يلزم أقل من جيش منتصر حتى يمكن اجتياز عتبة هذا المسجد، وحتى يمكن انتزاع هذا الأثر من هذا المكان، حيث ظل مجهولا ومفقودا لفترة طويلة من الزمن، إنه حوض من الرخام الصناعى الأخضر، تحمل كل وجوهه الخارجية والداخلية كتابات ورسوم هيروغليفية، وله شكل شبه منحرف، أما أطواله كما قستها فهى كما يلى: ٢,٩٠م لطول كل من الواجهتين الكبيرتين حتى زاوية اتكاء الرأس، كما أن عرض كل منهما عند هذه النقطة يبلغ ١,٦٠م فيما بين طرفى قوسه الخارجى، إذ إن شكل الرأس مقوس، أما أطوال الواجهتين الصغيرتين فهى ٠,٩٣م و١,٢٤م. وهو محفور من الداخل بشكل مواز لشكله الخارجى على عمق يبلغ ١,٠١م، فى حين يبلغ هذا العمق من القاع إلى قمة قوس

---

(١) انظر تصميم هذا المسجد فىA من المجلد الخامس، لوحة ٣٨.

الرأس ٢,٤٠م، أما سمك جدران هذا الحوض فيبلغ ٠,٢٣م، ولابد أن وزنه يصل إلى ١٢-١٣ ألف لبرة زنة مارك، أى حوالى (٥٨٧٤ - ٦٣٦٣ ك.ج). وهذا الأثر هو واحد من أكثر الآثار التى بقيت من الحضارة المصرية القديمة، مدعاة للفضول، وقد كان واحداً من تلك الآثار التى كلفت بنقلها إلى فرنسا مع اثنين من زملائى[1] لكن ماقدرته مسيرة الحرب كان

(١) كان القائد العام كليبر قد عين ثلاثة أعضاء هم السادة: نويه الفلكى Nouet ، ديكوستيل Descostils ، وأنا. وقد سافرت من القاهرة فى السابع والعشرين من بليفوز من العام الثامن أو ١٦ فبراير ١٨٠٠ لكى نبحر مع هذا الأثر الجميل لجامع سان أثناز بالاضافة إلى حوضين آخرين من القاهرة، عرف أحدهما لوقت طويل باسم حوض أو نافورة العشاق، وكان يوجد أسفل سلم جامع ابن طولون مطلا على أكبر شوارع القاهرة. أما الآخر فقد نفذ على شكل جسم إنسان، وكان معنا كذلك مسلتان صغيرتان من الحجر الأسود يبلغ طول كل منهما من ٣ إلى ٤ أمتار، وكذلك حجر ذو كتابات ثلاث وغطاء رأس أحد التماثيل الضخمة من ممفيس، وقطع مفتتة من أحواض وتماثيل أخرى، وقد نسخت النقوش الهيروغليفية من على المسلتين الصغيرتين المصنوعتين من البازلت، كما قمت برسم تصميم ومقاطع للنافورة التى على شكل جسم إنسان. انظر التفاصيل التى قدمها السيدان جومار Jomard ورافينو Raffeneau ، فى A من المجلد الخامس، اللوحات ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٥.

أمراً مغايراً.

وإذا كانت الأحداث العسكرية الأخيرة التى أدت إلى جلائنا عن مصر قد حرمت فرنسا من إحدى المغانم التى كان يمكنها أن تثرى متحف العاصمة، فليس للآداب والفنون أن تأسى، فخسارتها لم تكن تامة، فهذه الغنيمة تظل بفضل عزيمتنا التى لاتلين فى متناول أيدينا، إذ يستطيع العلماء والفنانون أن يذهبوا لتأمل هذا الأثر الذى لايقدر بثمن بالنسبة للفنون والتاريخ، فى متحف لندن.

٢٦- تجاه جامع أثناز وبالقرب منه، يلاحظ المرء كذلك ثلاثة أعمدة من الجرانيت الأحمر واقفة، ويمكن أن يبلغ ارتفاع الواحد منها ١٢-١٣ متراً X ١٤٠ سم هو قطرها الأوسط، ويوازى هذا الصف من الأعمدة الجميلة التى يفصل بين كل واحد منها ١٠-٢٠ خطوة، الشارع الذى يفضى إلى بوابة فى الاتجاه القادم من الباب الغربى للميناء القديم. ويرى المرء بالمثل، من ٧ إلى ٨ أعمدة ضخمة واقفة كذلك، وملتصقة بجدران الواجهة الداخلية للبيوت الواقعة إلى اليمين عند الوصول إلى القرية المتاخمة للبوابة الشرقية للسور، وهذه

القرية اليوم محطمة عن آخرها، وفى عام ١٦٩٢ أحصى المسيو دى ماييه Maillet القنصل الفرنسى عددا كبيرا من هذه الأعمدة توازى أيضاً هذا الشارع القديم.

٢٧– أما الخرائب الهائلة التى نراها على بعد ١٦٠ متراً إلى الشرق من نفس هذا المسجد، والتى تشكل بقايا جدران ضخمة لمبانٍ قديمة من الطوب الأحمر، فتعود، مثلها مثل تلك التى تقع على بعد ٣٥٠ متراً إلى الشمال الشرقى من جامع السبعين، إلى قصور قديمة، حيث لانزال نلمح فيها حتى اليوم أقواس قناطر وبقايا أحواض أو خزانات مياه، ويستخلص من فحص هذه الأطلال، أن هذه المبانى كانت تشتمل على حمامات ونافورات عمومية، وأن كتل الأسمنت الأحمر التى تغطى الطوب الأحمر المسطح، الكبير الحجم، المستخدم فى هذه الأبنية السميكة والضخمة قد اكتسبت بمرور الزمن تماسك الصخور وصلابتها الشديدة.

٢٨– وقد تناقص اليوم عدد الحمامات – وقد كان فيما مضى هائلا – إلى حمامين أو ثلاثة فى كل هذه المدينة، وثمة واحد من بينها مفتوح للعامة، يقع فى ظهرخرائب القصر

بالقرب من جامع أثنان. ولن أقدم هنا وصفاً خاصاً لهذا الحمام، إذ هو يشبه كل الحمامات المفتوحة للعامة فى القاهرة وسائر المدن المصرية الأخرى، وقد نيط بآخرين غيرى أن يضيفوا رسوماً إلى التفاصيل الوصفية ليقدموها فى وصف مصر.

٢٩- أما المجرى الهندسى للمياه والذى تحمل قناطره العالية المياه من المدينة العربية إلى البرج الضخم عند البوابة الشرقية والذى يطل على ساحة الميناء الجديد، فإما أنه بناء حديث وإما أنه يعود إلى القرون الوسطى، وقد هدم هذا المجرى بسبب أعمال التحصينات الجديدة التى قام بها الفرنسيون.

٣٠- أما المبانى التى فلتت - جزئيا على الأقل - من تخريب الزمن فهى خزانات المياه المخصصة للتموين السنوى للمدينة. وهذه المنشآت تحت الأرضية والتى بنيت فوقها المدينة تشكل قباباً تدعمها عواميد على شكل قناطر مقوسة من طابقين أو ثلاثة طوابق، جدرانها الداخلية مطلية بطبقة سميكة

من الأسمنت الأحمر المسمط، الذى لاتنفذ من مسامه المياه، وقد أنشئت هذه الخزانات على قيعان متفاوتة الارتفاع، ولكنها على الدوام أدنى من سطح البحر بحوالى ٥-٦ أمتار، وهى واسعة وعميقة ومتعددة الفتحات، وتمثل الزوايا آباراً شبه دائرية على الحواجز الرأسية، التى نفذت فيها حفرات يستخدمها العمال كسلالم يضعون عليها أقدامهم عند الهبوط أو عند الصعود، عندما يقومون بأعمال الإصلاحات التى يستدعى الأمر تنفيذها، لتطهير الآبار من الطمى الذى ترسبه فيها مياه النيل كل عام.

إن خريطة للمنشآت تحت الأرضية لمدينة الأسكندرية ستكون مثيرة للفضول بقدر ما تكون هى مثيرة للاهتمام حين نربطها بخريطة الأسكندرية وموقعها[1] ، ذلك أن هذه الخريطة سوف تسهل لنا مهمة دراسة أحوال المناطق والأماكن القديمة

(١) عهد بتصميم الخريطة تحت الأرضية للأسكندرية إلى المسيو فاى Faye مهندس الطرق والكبارى، والذى كان مكلفاً بالأعمال الهيدروليكية للميناء، وإننى أقدم هنا هذه التفاصيل تبعاً للمقاييس والمعلومات التى توصل إليها هذا المهندس.

حين توضح لنا اتساع وكثرة مصادر المياه التى أنشأها لنفسه شعب كبير العدد، لإشباع واحدة من أهم الاحتياجات الأولى لحياته.

كان عدد الخزانات لايزال حتى بضع سنوات يصل لحوالى ٣٨٠–٤٠٠ خزان، لكنه الآن يبلغ بالكاد ثلاثمائة وثمانية خزانات، ومن المحتم أن يتناقص هذا العدد بسبب الإهمال فى صيانة الآبار والعناية بها، إلى أن يكفى تقريبا احتياجات الشعب الحالى للأسكندرية، ويفى كذلك باحتياجات البحرية لعامين متتاليين. إن المرء ليستطيع أن يجزم بأن عددا هائلا من الخزانات تحت الأرضية القديمة مطمورة الآن تحت أنقاض المدينة.

ولقد تناقص عدد الخزانات الصالحة للاستعمال إلى ٢٠٧، تبلغ طاقتها بعد طرح ١/١٠ من سعتها–وهو تقديرنا لحجم أعمدة ودعائم القباب والقناطر المقوسة–٤٣٨ , ٣٣ مترا مكعباً، بمتوسط قدره ١٦١م٣ للخزان الواحد، ومن جهة أخرى، فإذا

كان المتر المكعب من المياه الحلوة يزن ٢٠٤٢ لبرة و ١٧٣/١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ رطل من زنة مارك أى ما يساوى ٩٧٩ ك.ج وديكا جرام واحد (١٠ج) من العدد الدائرى مثل الطن البحرى، وحيث إن ٧٠ رطلا تساوى ٣٤ ك ج و٢٧ ديكاجرام هى زنة القدم المكعب من المياه الحلوة، فإننا نحصل على كمية تبلغ ٦٦,٨٧٦,٠٠٠ رطل، تعطى عندما نقسمها على٦ أرطال هى وزن ثلاث بنتات(*) من المياه – نصيب الرجل، الواحد فى اليوم – ١١,١٤٦,٠٠٠ نصيباً أى ما يكفى لاستهلاك ٢٠ ألفاً من الرجال–يدخل فيهم نصف حامية الأسكندرية، فى حالة الحصار–لمدة تبلغ ٥٥٧ يوماً، أى مايقرب من عام ونصف العام، ولايضع هذا الإحصاء فى اعتباره الخسارة التى تنتج بفعل البخر ونقل المياه، ذلك أن هذه الخسارة التى لايمكن تفاديها، تعوض بشكل مجز عن طريق مياه الأمطار، وكذلك مياه الآبار التى تتفاوت درجة صلاحيتها للاستعمال، والتى

(*) البنتة، كيل للسوائل يسع ٥٦٨, ٠ من اللتر. (المترجم).

نجدها فى كثير من البيوت فى المدينة الحديثة، كما قلنا من قبل، كما تعوض هذه الخسارة كذلك عن طريق مصادر أخرى سنتناولها فيما بعد.

٣١- وبخلاف هذا العدد من الخزانات فإننا نحصى هناك أيضاً، داخل الحى العربى، ٧٣خزاناً يبلغ عمقها من ١٥ إلى ٢٠ متراً، تستقبل مياه النيل عن طريق جداول سفلية تتفرع من الخليج، سنتحدث عنها فيما بعد. وهذه الخزانات الواسعة، ذات الشكل الدائرى، والتى يبلغ عمق قاعها ١٠-١٢ متراً تحت مستوى سطح البحر، تستخدم فى تغذية الخزانات أولا بأول للاستهلاك، كما تساهم فى رى الحدائق التى تزدرع داخل المدينة. وتستخرج منها المياه بواسطة عجلات ذات قواديس، على شكل سبحة (ساقية). وتدور هذه الماكينات ذات التصميم الريفى بواسطة ثيران، تلتزم ولاية البحيرة بمد الأسكندرية بها كل عام.

٣٢- ويعهد بصيانة الخزانات والعناية بها إلى إشراف

ورقابة الشوربجى تحت إشراف الكاشف أو حاكم المدينة[1] ويرصد للتطهير السنوى لهذه الخزانات مبلغ لابأس به. وهذه الأعمال - كما لابد أن نتصور - بالغة الأهمية، حيث تتوقف على القيام بها حياة أهل الأسكندرية. لكن هذه الصيانة، وكذا تطهير هذه الخزانات، وبالمثل تطهير كل ترع مصر، كان

---

(١) تتراوح المبالغ المخصصة سنوياً لمصاريف إصلاح الخزانات بالمدينة، مثلها في ذلك مثل مصاريف ترعة الأسكندرية بين ٢٠ إلى ٢٥ ألف قرش (يساوى القرش ٤٠ مدينى) أى مايبلغ من ٢٨.٥٧١ جنيهاً و١٠ سو إلى ٧,٣٥,٧١٤ سو من العملة التورية (نقد فرنسى قديم مسكوك فى مدينة تور على الطراز الملكى). وبواسطة هذه المبالغ يأخذ الحاكم على عاتقه مهمة التموين السنوى لخزانات المدينة، وتحرر حجة أصلية بهذه العملية، وترسل حسب الأصول، إلى باشا القاهرة. وتحتوى هذه الحجة على محضر يثبت أن كل الخزانات قد امتلأت بالمياه اللازمة لاستهلاك المدينة أثناء السنة.

وبخلاف هذه المبالغ، يحصل الشوربجى على أتعاب تبلغ ٣٥,٨٠٠ مدينى أو ١٢٧٨ جنيها و ١١ سو: ٨٥٠ منها عن طريق الكاشف و ٤٢٨ عن طريق الجمرك. وقد تحدث المسيو أوليفييه Olivier عن هذا الموضوع بالتفصيل فى تقريره عن رحلته إلى داخل الامبراطورية العثمانية ، مصر واليونان، جـ٣ ص١ ، ٧٨؛ كما يمكن أن نعود حول هذا الموضوع إلى الدراسة عن الترعة التى تربط بين البحرين، الجزء ٣، الفصل ٣، ص ١٢٩، فيما يتصل بترعة الاسكندرية، وكذلك إلى دراسة المسيو إستيف Estève عن مالية مصر، ص ٢٧٣، الدولة الحديثة، المجلد الأول.

وسيظل لوقت طويل لسوء الحظ، يتم بشكل ردىء، بل ويهمل كلية، مادام يتم تحت رحمة هذا الجشع الإجرامى للجنود الذين يفتشون عليه.

٣٣- وكما رأينا فى الفقرة الخاصة بترعة هذه المدينة، فى الدراسة عن القناة التى تربط بين البحرين، فإن المدينة لاتحصل على مياهها الحلوة إلا عن طريق الترعة التى تأخذ مياهها من النيل، عند الرحمانية، وتعبر من الشرق إلى الغرب إقليم البحيرة بطول يبلغ ٩٣,٥٣٠ متراً. ويعبر هذه الترعة شديدة التعرج، أربع قناطر عند ضواحى الأسكندرية، وهى القناطر الوحيدة التى نجدها فوق مجراها[١].

وهذه القناطر، وهى عبارة عن أقواس معلاة، ومبنية على الطراز القوطى، هى من إنشاء العرب، وهى كذلك فى حالة

---

(١) يمكن أن نعود إلى خريطة القناطر والخلجان فى الأسكندرية لنرى بداية هذه الترعة التى تجمع عندها الانجليز والأتراك وقاموا بقطعها؛ وبسبب ذلك فقد حدث، فى شهرى أبريل ومايو من سنة ١٨٠١، أن صب البحر ماءه فى حوض ماريوتيس (مريوط) عن طريق بحيرة المعدية، فأغرقت ما يقرب من ثلاثين قرية فى منطقة لاينبغى أن ترويها سوى مياه النيل وحدها، كما كان يحدث وقت وجود هذا الاقليم القديم.

سيئة بعض الشىء. ولم تعد هذه الترعة التى أفاض المؤرخون العرب فى وصفها وامتداحها، سوى امتداد لحفرة، لم تزل - على الرغم من أنها توشك أن تكون شبه مردومة - تتجه إلى المدينة، حيث توزع مياه النهر على كل الخزانات، عن طريق أربعة جداول سفلية. وأقصى هذه الجداول من جهة الغرب هو نفس امتداد الترعة، التى تذهب لتصب فى الميناء القديم على شكل مورد للسفن (المكان الذى تتزود فيه السفن بالمياه العذبة). وإلى هذا المورد، الضرورى للغاية لمنشأة بحرية، والذى يشبه بالنسبة لهذا الميناء خزان مياه حقيقى، تذهب السفن للتزود بالمياه، أوقات فيضان النيل[1].

---

(١) حددنا بمربعات مرسومة بخطوط منقطة فوق جداول ترعة الأسكندرية، فتحات هذه المجارى الهندسية، وكانت هذه فتحات لادخال الضوء والهواء إلى هذه المجارى تحت الأرضية، ولتسهيل عمليات التطهير والصيانة السنوية اللازمة.

ويتحدث المسيو دى ماييه،الذى سبقت الإشارة إليه، عن قنوات أخرى تحت أرضية كانت فى عصره (١٦٩٢-١٧٣٢) تنقل مياه النيل، محاذية الساحل كله من الأسكندرية حتى أبى قير إلى الشرق، أى بطول يزيد =

٣٤- ووسط الخرائب التى انتهينا من عبورها، لايجد المرء ما يمكن أن يجذب ناظره أو يوقف خطو المسافر المحزون سوى خضرة بعض شتلات النخيل فى الحدائق القائمة حول المساكن المنعزلة والتى تحيط بها. وبخلاف أشجار النخيل يجد المرء فى هذه الحدائق أشجار التين، والتوت، والرمان، والمشمش، والبرتقال، والعناب، والحنة، وشجيرات أخرى. ومن بين الخضروات يزرع هناك الباذنجان والكرنب، والخس، والهندباء، والخرشوف..إلخ؛ وفضلا عن ذلك، فإن النسيم الذى يستمتع به المرء فى هذه الحدائق سيئة التنظيم، يجعل الطقس مناسباً لدرجة كبيرة حتى ليغامر المرء بأن يصل إليها، من خلال أتربة بيضاء مالحة فى أرض ملتهبة.

= على ٢٠,٠٠٠ متر، وما يقرب من ٥,٠٠٠ إلى ٦,٠٠٠ متر بحذاء المقابر إلى الجنوب الغربى، ويقول هذا القنصل الفرنسى الذى أقام أربعين عاما: "إن الترعة تحت الأرضية، التى كانت تمتد إلى الشرق، كانت واسعة حتى ليستطيع رجل أن يعبرها واقفاً بكامل راحته". وهذا مايلاحظه المرء، فى الواقع، فى الجداول الأربعة المتجهة إلى الجنوب، ويمكن الظن بأن الترعة التى تحدث عنها المسيو دى ماييه، هى الترعة القديمة المكشوفة، والتى يحتمل أن تكون قد غطيت بمرور الزمن، وكانت هذه تتجه من الإسكندرية إلى كانوب وهيراكلى، أى أبى قير حالياً.

٣٥- وعندما نخرج من هذا السور لنجتازه إلى خارجه، فإننا لا نقابل سوى مبنى واحد نستطيع بسبب ارتفاعه، وإذا ما اعتليناه، أن نبصر ما يدور فى أعالى البحار. وأود أن أتحدث هنا عن هذا العمود الضخم الجدير بلفت أنظار المسافر الذى يتجه إلى مصر عن طريق الأسكندرية: يقوم هذا العمود، الذى نلمحه إلى جنوب سور المدينة العربية، فوق مرتفع يبلغ ١٢-١٥ متراً، نلاحظ فيه كتلا هائلة من مبان قديمة. فوق هذا المرتفع أقيم هذا العمود الأثرى من الجرانيت
ل ب ق
الشرقى، ويبلغ ارتفاع جذعه ٣ ١ ٦٣ أو ٢٠,٥٠ متراً على
ل ب ق
محيط أوسع يبلغ٨ ١٠ ٧ أو ٢,٥٦ م، ويزن ٥٧٣,٧٣٠ رطلا من زنة مارك أى ٢٨١,١٢٨ كم و ٧٠ ديكا جرام (٧٠٠ج) ، غير شامل قاعدته وأساسه وقمته التى يبلغ
ل ب ق
ارتفاعها ٩ ٤ ٢٥ أى ٨,٢٥م، وهو ما يجعل الطول الإجمالى
ل ق
للأثر : ٦ ٨٨ أى ٢٨,٧٥م. ويبدو أن هذا العمود، الذى كان يسمى حتى هذه اللحظة على نحو غير دقيق عمود بومبى، قد

أقيم على شرف الامبراطور سبتيموس – سيفيروس[1] . ويمكن

---

(١) جاء أبو الفداء، أمير سوريا، والمؤرخ الجغرافي العربي إلى المدينة عام ١٣٨٣. ويقول هذا المؤلف إن العمود في زمنه كان يحمل اسم (سبتيم – سيفير -Septime Sévére) كما أنه قد أقيم على يد أهل الأسكندرية اعترافاً منهم بالمكاسب التي حصلوا عليها من هذا الامبراطور الذي زار مصر سنة ٢٠٠ ميلادية، ومما لا جدال فيه أن الكتابات اليونانية التي كان يصعب قراءتها في زمن أبي الفداء، والتي لم يعد من الممكن قراءتها الآن، كانت في ذلك الوقت لاتزال تشهد على هذا الحدث التاريخي، ويدعي عالم انجليزي، أمكنه فيما يقال أن يفك رموز هذه الكتابات بعد رحيلنا، أنها تحمل في الواقع على الاعتقاد بأن هذا العمود قد أقيم على شرف سبتيموس – سيفيروس. ويقدم المسيو دي شاتوبريانChateaubriand الذي زار المدينة في أكتوبر وديسمبر ١٨٠٦ هذا النص اليوناني الذي نترجمه كما يلي: "إلى امبراطور الأسكندرية البالغ الحكمة، دقلديانوس أوغسطوس، حاكم مصر" لكن هذا النص لايهدم في رأيي الشهادات التي تنسب إقامته إلى سبتيموس – سيفيروس. انظر: L'Itinéraire de Jerusalem a Paris, Par M. de Chateaubriand t. III Pag 100 etc.

ويمكن أن نرى الوصف الخاص الذي قدمه عن هذا العمود المسيو نوريNorry المهندس المعماري، وعضو مجمع العلوم والفنون في مصر، في مجلدات العصور القديمة، وصف مصر، فصل ٢٦.

ويقول المستر ولسون، في الجزء الثاني من مؤلفه، ص ١٤٩ " من بين الآثار القديمة التي عثر عليها الإنجليز، حجريلفت الأنظار وهو على شكل مائدة كبيرة عليها نقوش هذه ترجمتها: إلى كل من يهمه الأمر، أقيم هذا العمود على شرف سبتيموس سيفيروس على يد جنود الفيلق الحادي عشر. وهذه المائدة طرف الجنرال كوت Coat".

القول بأنه يشبه برجا، كان الهدف من إقامته أن يستعمل دليلا للسفن التى يمكنها أن تلمحه على بعد يزيد على فرسخين فى الماء، فى الوقت الذى تختفى فيه عن الأنظار الأبراج المقامة فى الحى العربى فى أرض سواحل مصر المنخفضة والمتعرجة. ونرى أن جذع هذا العمود يزيد فى وزنه عن وزن المسلة المقلوبة بحوالى الربع وهى المسلة التى تحدثنا عنها من قبل، والتى كان يلزم لنقلها سفينة تبلغ حمولتها ٣٠٠ طن. ولن أواصل الحديث عن هذا الأثر، الذى يمكن أن نشاهد قامته وتفاصيله فى A من المجلد الخامس، اللوحة ٣٤.

٣٦- ولكى نتابع بانتظام، الأبحاث الأخيرة التى كان علينا القيام بها، شأننا فى ذلك شأن المسافر الذى يعد خطواته حتى لايعود أدراجه من جديد، فإن علينا أن نعود إلى الميناء الجديد، وأن نعبر، من الشرق إلى الغرب، الخرائب الأخرى التى توجد خارج هذه المدينة.

عندما نخرج من السور العربى، عن طريق برج الرومان

المؤدى إلى الميناء الجديد، نجد فى كل خطوة - إذا ماسرنا بحذاء الشاطىء - بقايا وآثاراً من مبان قديمة، مثل الحمامات، والبواكى التى نتعرف على كتل بنائها من الطوب الأحمر والأسمنت وكتل من الأحجار الضخمة، وأجزاء من أرصفة كانت جزءاً من ميناء، وخرائب أخرى. ويمكن القول بأن هذا الجزء الشرقى للميناء الجديد، هو الآن مهجور تماما، بدءاً من برج الرومان حتى رأس المنارة Pharillon ، وملىء بأنقاض المبانى القديمة، التى قلبتها يد البشر رأساً على عقب، أكثر مما فعلت أمواج البحر التى كانت تضرب سفحها بلا انقطاع.

٣٧- والـ Pharillon (المنارة) هو ذلك الحصن الصغير الذى سبق أن تحدثنا عنه، والذى يتخذ اسمه من موقعه تجاه حصن الفنار، وهو مقام على حافة شريط من الشعب الصخرية التى تقفل مدخل الميناء الجديد الذى يقوم الفنار بالدفاع عنه. أما الجسر الذى يؤدى إلى هذا الحصن الصغير، فهو بنفس مستوى مياه البحر التى تغطيه فى أيام

الطقس المعتم (الشتوى). وهذا الحصن الصغير، ليس اليوم سوى برج مربع الشكل تحول إلى خراب. وقد شاهدت هناك بعض قطع ضخمة من مدفع حديدى، حولته الأكسدة التى تسببها الرطوبة المالحة، الناتجة عن مياه البحر، إلى مثل هذه الحالة من التفتت، حتى أن الحديد يتساقط إذا لامسته النصال أو أية قطع معدنية.

٣٨- ووسط الخرائب الموجودة على الشاطىء إلى الشرق، لانجد سوى خرائب فناء واسع تغلقه جدران يبلغ ارتفاعها ٧-٨ أمتار، وواجهات هذا السور ذى الجوانب الأربعة، والمفتوحة من بعض الجهات والتى تعلوها بعض الأبراج الصغيرة، يمكن أن يبلغ طولها من ١٢٠ إلى ١٤٠ متراً، وجدران هذه الخرائب الضخمة التى تسمى بلغة البلاد: قصر القياصرة، ذات سمك كبير، ويشكل بناؤها- وهو من الحجارة التى تميل إلى اللون الأبيض، ومن النوع الجيرى، وكذلك من الطوب الأحمر ذى الأحجام الكبيرة - الطبقة المميزة من الطبقات الأفقية والمنفصلة لارتفاعات مختلفة، على طريقة

المصانع والمحلات الرومانية. وفوق المرتفعات التى تحيط بخرائب هذا القصر، الذى يبعد بمسافة ٤٣٥٠ متراً إلى الشمال الشرقى من بوابة رشيد، دارت معركة ٣٠ فنتوز من العام التاسع (٢١ مارس ١٨٠١) بين الجيش الفرنسى من جهة، والجيش الإنجليزى - التركى من جهة أخرى.

٣٩- ولايعود الإنسان يقابل على شبه الجزيرة الطويلة والضيقة والتى تمتد إلى الشمال الشرقى حتى أبى قير، إلا بعض الخزانات والبيوت المتفرقة وسط حقول مزروعة أو غابات أشجار النخيل، تحيط بها رمال الصحراء ومياه البحر إلى الشمال ومياه بحيرة المعدية إلى الجنوب من كل جهة.

٤٠- أما أبو قير، الذى يعيد إلى الأذهان على الدوام أعظم ذكرياتنا من انتكاسات وانتصارات الجيش الفرنسى فى مصر، فهو رأس متقدم فى البحر، يشغل قمته أحد الحصون، وتبلغ المسافة بينه وبين حصن الفنار فى خط مستقيم، ٢٢,٢١٠ متراً، كما تبلغ ٢٠,٧٠٠م إلى الشمال الشرقى من ميناء رشيد. وقد دمرت القرية التى كانت تقوم

تحت جدران هذا الحصن عن آخرها أثناء معركة أبى قير وحصار هذا الحصن نفسه، من ٧ إلى ١٥ ترميدور من العام السابع (٢٥ يولية إلى ٢ أغسطس ١٧٩٩)[١] .

٤١- وقبل الوصول إلى أبى قير، نجد على الشاطىء وعلى مسافة حوالى ٢٥٠٠ م إلى الجنوب الغربى لهذا الحصن، مرتفعات تكونت من الأنقاض التى تعود إلى كانوب القديمة (أبى قير حالياً)، ومن بين قطع الجرانيت والرخام المبعثرة على الشاطىء، نميز أبدان الأعمدة وتيجان بعض الأعمدة، وكرياتيد[*] ، وأبا هول، وتماثيل أخرى مشوهة أو محطمة؛ وعند هبوطنا إلى الساحل، نجتاز بعض منشآت تحت أرضية يرتفع مستوى أرضها ٥ إلى ٦ أمتار فوق مستوى مياه البحر؛ ونرى هناك بقايا حمام محفور فى الحجر الجيرى الذى يقفل ويحد ساحل الأسكندرية حتى أبى قير، حيث يتوقف فجأة كى لايظهر بعد ذلك إلا على شاطىء

---

(١) انظر شكل هذا الحصن، الدولة الحديثة، مجلد ١، اللوحة ٨٣.
(*) تمثال لامرأة يقوم مقام الأعمدة (المترجم).

سوريا فى الشرق. وينتهى هذا الحمام الذى يضم حجرات متنوعة موزعة بشكل منتظم، وإلى الشمال، بردهة نصف دائرية، تصل منها مياه البحر عن طريق أربع فتحات تتصل بدهليز يدور بشكل مركزى على هيئة نصف دائرة، وتخترق بواكى هذا الدهليز نفسه، إلى الخارج، أربع فتحات أخرى تصب فى البحر، متخذة اتجاها معاكساً للاتجاه الذى تتخذه الفتحات الأربع الداخلية، وكل حجرات هذا الحمام، وكذلك هذه الدهاليز الدائرية منحوتة فى الصخور. والفكرة من وراء هذا التصميم، وهى واضحة تماماً، تهدف كما يمكن لنا أن نستنتج إلى تكسير وإضعاف ضربات أمواج البحر حتى لاتدخل إلى الحمام إلا مياه هادئة وشفافة؛ وقد تحممت عدة مرات فى هذه الحمامات. أما حجراته التى يبلغ عددها سبع حجرات أو ثمانى، فهى تغص بالرمال عن آخرها، فيما عدا أكبر هذه الحجرات التى لاتزال تحتفظ بـ ٣ إلى ٤ أقدام من المياه، عند مصبات الفتحات الداخلية الأربع للدهليز الدائرى، ونصل إلى هذا الحمام عن طريق طرقات وحجرات سفلية، وقد استوجب

الأمر أن يكون حماما مغطى، ولابد أنه كان تابعاً لأحد القصور أو لمنشأة عامة على درجة كبيرة من الأهمية، ونجد آثاراً مشابهة على كل ساحل المقابر فى جنوب غرب الأسكندرية. وقد كانت الحمامات بلا جدال ذات نفع عظيم كما كانت تشكل متعة كبيرة فى هذه المناطق الساحلية، ويمكن لنا أن نعتقد أنها كانت تساهم فى مباهج تلك الأعياد الخليعة التى كان يتوجه إليها شباب الأسكندرية فى شكل جماهير، والتى كانت تقوم فى مدينتى كانوب وتابوزيريس، ولكن، فلنعد الآن إلى قصر القياصرة، الذى لم نبتعد عنه إلا لإلقاء الضوء فى كلمات سريعة على الأرض التى تحد من جهة الشرق مدينة الأسكندرية.

٤٢- إذا ما توجه المرء من قصر القياصرة نحو الجنوب وخارج سور المدينة فإنه سيقابل سهلا منخفضا ومالحاً، حيث يغوص سطحه الرطيب محدثاً شيئاً من الطقطقة تحت أقدام المسافر، كما لو كان يطأ ثلجاً متجمداً؛ ثم وبعد أن يترك عن يمينه المرتفعات التى ليست - كما سبق أن قلنا -

سوى أكوام من الأنقاض، فإنه يصل إلى القنطرة القصوى من جهة الشرق، المقامة فوق الخليج أو ترعة الأسكندرية، التى نجد على شواطئها عدداً هائلا من الآبار وخزانات المياه. ولكى نتعرف جيداً على شكل هذه القنطرة، وهى شبيهة بشكل القناطر الثلاث الأخرى التى لاتزال باقية حتى اليوم داخل سور المدينة باتجاه الغرب، فإن علينا أن نعود إلى الرسوم التى قدمها لنا المسيو بلزاك[1] .ووجود هذه القناطر الأربع، وهى الوحيدة التى بنيت فى ضواحى الأسكندرية، على كل مجرى الترعة التى يبلغ طولها حتى الرحمانية ٩٣,٥٣٠ متراً، يبرهن إلى أى حد كانت هذه المنطقة ولابد مزروعة وآهلة فى عهد الرومان، وخلفائهم العرب، وكان بمقدور المرء حتى بضع سنوات خلت، أن يرى بعض غابات النخيل على شواطىء هذه الترعة، وكذلك فى شبه الجزيرة التى تمتد حتى أبى قير. لكن هذه الأشجار، التى يجدّ الناس فى السعى إلى ظلالها الضئيلة، والتى تعد ثمارها واحدة من أكبر مصادر الدخل فى

(١) انظر الأطلس، الدولة الحديثة، المجلد الثانى، اللوحة ٩٩.

مصر، قد اختفت مع مجيء الجيوش المتعادية التى دمرت، الجيش تلو الجيش، ضواحى هذه المدينة فيما بين عامى ١٧٩٨ و١٨٠١.

٤٣- بالقرب، وإلى الجنوب من عمود سبتيموس سيفيروس، وهى تسمية، أصبح من المناسب منذ الآن أن نطلقها على هذا المبنى، يوجد مكان فسيح، لايسمح شكله المستطيل الذى ظل يحتفظ به، وكذلك نتوء شوكته المقتطعة والمنحوتة فى صخرة صلبة، بأن يتسرب أى شك فى أن هذا ليس سوى بقايا مضمار (لسباق الخيل) قديم يبلغ طوله ١٧, ٥٥٤م وعرضه ٦١, ٥١م، أما طوله من الخارج من فوق المحور الكبير، فيبلغ ٦٠, ٦١٤م، وهو ما يدل على أن عرض المدرج المخصص للمتفرجين على الألعاب يبلغ ٣٠ متراً.

وتبعاً لهذه المقاييس، فإننا نستنتج أن العربات التى كان يراهن عليها فى ألعاب السيرك كان عليها أن تعبر ٦,٥٠ غلوة يونانية أو أولمبية[1]. وعند الطرف الغربى من الشوكة،

---

(١) انظر رسم السيرك للمسيو بلزاك فى A من المجلد الخامس، اللوحة ٣٩.

نرى ثقبا عميقا، حيث كانت تنتهى - على الأرجح - ترعة تتصل ببحيرة مريوط، كانت تستخدم، إذا صح هذا الاحتمال، فى إدخال المياه إلى حلبة السيرك.

٤٤- وبعد أن تعبر الترعة عند مرفقها الموجود فى أقصى الغرب، فإنك تقابل مرتفعاً مكوناً من صخرة حجرية صلبة، تجد فيها مغارات مقتطعة على شكل دهاليز أو كهوف تحت أرضية، وتعرف هذه الكهوف المخصصة للدفن باسم : المقابر.

ويلاحظ عند الحواجز الرأسية لهذه الدهاليز وحجراتها ثلاثة أو أربعة صفوف من المقابر المحفورة فى الصخور فوق بعضها البعض، والتى لايظهر منها بسبب هذه الطريقة فى الحفر إلا الجزء الذى تنتهى إليه أقدام الجثث التى تدفن فيها. ويختلف هذا الوضع - البالغ الفائدة من كافة النواحى- عن الوضع الذى نلاحظه فى مقابر مالطة وروما، التى زرتها، الأولى فى يونية ١٧٩٨ والأخيرة فى مارس ١٨١٠، حيث تحفر كلها هناك على شكل أخصاص أو حجرات رمسية (مقابر)

بالاتجاه الطولى للدهاليز. ويشعر المرء على الفور أن مثل هذا الوضع الذى يتطلب فراغا كبيراً لابد وأن يضم عدداً أقل من الأجساد عما لو كان قد حفر على غرار مقابر الأسكندرية، ومن جهة أخرى فإن التشابه القائم بين مقابر الأسكندرية هذه وبين مقابر روما ومالطة ينبغى أن يدفعنا للاعتقاد بأن مقابر الأسكندرية كانت تستخدم مقابر للمسيحيين الأوائل، أثناء اضطهادات الكنيسة، فى عهد أباطرة الشرق.

٤٥- ويتردد أهالى الأسكندرية والعرب البدو على المسجد الذى يقع إلى الغرب قريبا من هذه المقابر، وهم يذهبون إلى هناك لأداء الصلوات وتقديم الصدقات فى فترات معينة من السنة.

٤٦- يشكل الشاطىء الذى ينحدر إلى الجنوب محيطا بخليج الميناء القديم، صخرة جيرية تلطمها المياه وتفت فيها منذ قرون، ويتراوح ارتفاعها من ٥ إلى ١٠ أقدام فوق مستوى سطح البحر. وقد اكتشفنا على هذا الشاطىء أعداداً لاحصر لها من الكهوف تحت الأرضية، كانت ملحقة دون شك

بمدينة المقابر للأسكندرية القديمة، وجزء من هذه الكهوف مكشوف، وبعض منها تسده الرمال، ونتيجة لذلك فقد أعطى لكل هذا الجزء من الساحل اسم شاطىء المقابر.

وكل هذه المقابر تؤدى إلى البحر، ولها حمامات يتفاوت حجم اتساعها، أما أكثرها لفتاً للأنظار، فهى تلك المقبرة التى تقع على بعد ٣٥١٠ مترات إلى الجنوب الغربى من عمود سبتيموس سيفيروس، وكان العامة يطلقون عليها - وقد جانبهم الصواب فى ذلك - اسم حمامات كليوباترا؛ وقد أشرنا إليها على خريطتنا تحت اسم: معبد تحت أرضى، ولايمكن للمرء إلا بمشقة بالغة، وبالاستعانة بمشاعل، أن يدخل هذا المعبد نصف المطموس بفعل رمال الصحراء وأنقاض المبانى التى تحيط به، وهو فسيح، ومنتظم، وعمارته بسيطة، تتناسب مع الغرض من إقامته[1].

---

(١) انظر تصميم هذا المعبد تحت الأرضى الذى رسمه بعناية السيدان فاى Faye ومارتان Martin ، مهندسا الطرق والكبارى ، A من المجلد الخامس، اللوحة ٤٢.

وتدل أكوام العظام، وهى التى لايمكن أن تكون إلا عظام خراف وجمال وخيل وماشية أخرى، على أن مساكن الموت هذه كانت تستخدم كمأوى لحيوانات متوحشة أو لكواسر جارحة كانت تجر إلى هذه الكهوف جثث فرائسها، وينبغى على المرء أن يدلف إلى هذه المساكن السفلية بحذر شديد، مخافة أن تفاجئه بعض هذه الحيوانات المتوحشة التى لاتخرج منها الا للبحث فى عتمة الليالى عن غذائها والذى تجده فى معظم الأحيان فى مقابر المدينة.

وكثيراً ما يقابل المرء فى هذه المنطقة وفى ضواحيها، كمية كبيرة من فتات وقطع الرخام من كل صنف، مما يشهد بأن هذه الأماكن كانت تضم مبانى جنائزية على درجة من الأهمية، ولا ينبغى أن نولى بالا لما يحكيه العربان، الذين يدعون بأن هذه المقابر تمر من تحت حوض مريوط وأن دهاليزها السفلية تمتد حتى دهاليز الأهرام، فهذه خرافة بينة، ومع ذلك فهذه الدهاليز تمتد بالفعل لمسافة كبيرة، ولابد أنها تشكل ما يشبه اللابرنت (التيه).

٤٧- وعندما يواصل المرء مسيرته نحو الجنوب الغربى فإنه يجد فيما وراء هذه المقبرة الأخيرة بقايا قناة لابد أنها كانت تربط الترعة ببحيرة ماريوتيس، وتقع هذه القناة على بعد ٥٨٥٠ متراً، من عمود سيفيروس، ويبلغ طول شواطئها من البحر حتى البحيرة ١٤١٦ قدما، أو١١٣٣ متراً، وهذه القناة مطموسة، ولايزيد ارتفاعها الآن فوق مستوى سطح البحر بأكثر من متر، ويكفى لإعادتها إلى العمل، القيام ببعض الأعمال البسيطة والميسورة للغاية؛ وسوف يعود ذلك بأجل الفوائد إلى تجارة الأسكندرية وملاحتها.

٤٨- ولايشكل الجزء الباقى من الشاطىء حتى الشيخ (العجمى) إلا صحراء، ثم تبدأ السلسلة الصخرية، التى تحيط به إلى ماوراء آثار القناة التى تحدثنا عنها للتو، والتى تسمح لنا بأن نلقى نظرة غير متمكنة على المحاجر العديدة التى استغلت فى الماضى، والتى استخدمت حجارتها دون شك فى بناء مدينة الأسكندرية.

ويزرع حول لسان المياه المالحة الذى نجده قبل أن نصل

إلى الشيخ (العجمى) البطيخ والشمام من نوع رائع، وتدعم هذه الزراعة الرأى القائل بأن مياه هذا اللسان تأتى فى جزء كبير منها عن طريق المطر، وتستخدم هذه المياه فى رى هذه الحقول ذات الطبيعة الرملية.

٤٩– أما الشيخ أو الضريح (العجمى) فهو حصن صغير أقيم على قمة السلاسل الصخرية التى هى فى مستوى سطح مياه لسان ينتهى عند الجنوب الغربى من خليج الأسكندرية، ولايحمى هذا الحصن، الذى تبلغ المسافة بينه وبين حصن الفنار حوالى ١١،٧٢٨ مترا – إلا على نحو ضعيف – منفذ مضيق الخليج؛ وبالقرب من هذا اللسان قام الجيش الفرنسى بعملية انزال جنوده فى ١٣ ميسيدور من العام السادس (أول يولية١٧٩٨).

٥٠– ويجد القارىء فى دراستى عن الجزء الغربى من ولاية البحيرة وعن بحيرة مريوط(*)، وصف الجزء الباقى من الساحل والذى يمتد حتى برج العرب فى الجنوب الغربى حيث تنتهى معه أرض الأسكندرية، ويبقى على الآن أن أتكلم عن

(*) انظر المجلد الثانى من الترجمة العربية الكاملة لوصف مصر. (المترجم).

الطبيعة الجدباء لهذه المدينة.

٥١- لاتتكون أرض الأسكندرية، وكذا كل أرض شبه جزيرة رأس أبى قير فى الشرق، وحتى برج العرب فى الجنوب الغربى بطول يبلغ ٦-٧ ميريامتر، إلا من صخرة جيرية ضاربة إلى البياض؛ وتغطيها فى جزء منها كثبان رملية متحركة.

وعلى الرغم من أن هذه الأرض ذات طبيعة رملية، قاحلة وملحية، فإننا نجد فيها فى نفس الوقت بعض المياه المالحة والتى تتفاوت درجة صلاحيتها للشرب؛ ويتحقق ذلك بالنسبة لشاطىء شبه الجزيرة إلى الشمال الشرقى وإلى الجنوب الغربى، بمجرد أن نحفر عدة أقدام فى رمال هذه الصحراوات، وقد اضطر الجيش الإنجليزى - التركى لاستخدام هذه المياه أثناء الشهور الستة التى حاصر خلالها الأسكندرية.

ومن بين النباتات البرية التى تتكاثر بشكل طبيعى على أرض الصحراء المجاورة نجد الـ nitraire

والـ ficoides وأنواعا مختلفة أخرى من الصودا التى يجمع رمادها القلوى لينقل تجارياً إلى أوربا، حيث يستخدم فى صناعة الصابون[1].

٥٢- قبل أن تغرق مياه البحر بحيرة مريوط، كنا نرى على شواطىء هذه البحيرة التى يمتلىء حوضها بمياه المطر، وبالمياه التى يصبها النهر أثناء فيضانه فى الترع التى تتفرع عنه، كنا نرى كما نرى الآن على شواطىء بحيرات أخرى فى مصر السفلى أعداداً هائلة من الطيور من كل صنف مثل أبى قردان الأبيض، وطائر أبى منجل، والنحام (طائر طويل الساق والعنق) والبط البرى، والبط المائى، وزمج الماء (طائر بحرى طويل الريش)، والبجع، وأنواع أخرى؛ وفى تلك الأيام كان العربان يجلبون إلى الأسكندرية البط، والبط المائى، الذى

---

(١) نجد فى روايات سونينى Sonnini وأوليفييه Olivier اللذين سبقت رحلتهما إلى مصر الحملة الفرنسية بعدة سنوات، تفاصيل هامة فيما يختص بتاريخ الأسكندرية، وتجارتها، وطبيعة الصحراوات التى تحيط بها. انظر: Le Voyage en Egypte dans l'année 1778 par: Sonnini, tome ler, Chap VII,VIII, IX et X, pag 100 a 156, Le Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte et la Perse.en 1792, par Olivier, tom .III, pag 1 à 78.

يصيدونه بواسطة الشباك. وهناك نوع آخر من الطيور التى تستهلك منها كمية كبيرة فى هذه المدينة، والتى لايتطلب صيدها أدنى مشقة، تلك هى طيور السمان، وعصفور التين، والقبرة، وطيور أخرى مهاجرة، تسقط بفعل الإعياء، بعد الرحلة الطويلة التى قطعتها فوق البحار والتى تقوم بها كل عام فى شهر أكتوبر، تسقط منهكة على أول شريط من أرض مصر، لتقع فريسة فى يد الإنسان. وقد كان بإمكاننا- أثناء عودتنا إلى فرنسا، فى ٢٧ إلى ٢٩ سبتمبر ١٨٠١ وتوجهنا من سواحل مصر- أن نلاحظ الهجرات الموسمية للطيور المسافرة، وكانت هذه تسقط جماعات مصطدمة بصوارى وأحبال سفينتنا، فى حين لم تكن هذه الطيور قد عبرت بعد نصف المتوسط، وكان بعضها يستريح للحظات على سطح الماء، محاذراً ألا يدع نفسه يغوص بجناحه أكثر مما ينبغى، وقد شاهدنا بعضاً منها لا تستطيع النهوض برغم المجهود الكبير الذى تبذله لتعاود تحليقها فى الأجواء، ذلك أنها كانت قد بللت أجنحتها أكثر مما يلزم.

٥٣- وأخيراً؛ فمن بين الحيوانات ذوات الأربع، التى

تقترب من ضواحى الأسكندرية، والتى تجتاز أسوارها فى غالب الأحيان، نذكر ابن آوى، والضبع، وتتخذ هذه الحيوانات الضارية عادة مأويها فى قاع الكهوف والمغارات تحت الأرضية، ولا تخرج منها إلا ليلا، كى تذهب لتبحث عن فرائسها فى المقابر وأماكن رمى القاذورات، وتجرها من مسافات كبيرة حتى مخابئها. ويمكننا أن نعد أيضاً من بين هذه الحيوانات النهمة، الكلب المصرى، على الرغم من أنه يقطن نهاراً فى سلام فى القرى، وضواحى المدن الآهلة بالسكان، فإنه يحيا طليقاً لا صاحب له، فى قطعان أو عائلات متفرقة[١] تنتشر فى الليل وسط المساكن، كى تبحث

---

(١) ليست الكلاب فى مصر، على نفس حال مثيلاتها فى البلاد الأخرى، أى أنها ليست حيوانات مستأنسة؛ ويلاحظ أنها تعيش هناك وسط المدن والقرى، حرة طليقة بلا صاحب، ولكن فى شكل أسر متميزة فى غالب الأحيان فى هذا الحى أو ذاك حسب اختيارها، تطارد وتسىء معاملة الكلاب الأخرى التى تريد اقتحام حيها، ومن المعروف أنه توجد فى مصر منشآت خيرية لتأمين غذاء الكلاب والطيور. وهذه الأخيرة من النوع آكل الحبوب، وكانت تجد الحب يوميا فى أصص على شكل مناضيد صغيرة كانت توضع فى اهلة مآذن المساجد. وتعود هذه العادة إلى بقية من الاحترام المقدس الذى كان القدماء المصريين يحملونه للحيوانات. وأذكر هنا، أننا فى الأيام الأولى من إقامتنا فى=

عن غذائها.

وكان كل الجزء الأول من الخليج، فيما بين القناطر الأربع، بطول ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠م، يزرع على يد العربان، بواسطة المياه التى يحصلون عليها من الآبار وخزانات المياه العديدة التى تحيط بجسور هذه الترعة. وهكذا كنا نرى هناك بعض حقول البرسيم، والحلبة، والشعير، والقمح، كما كانوا يزرعون أيضاً بعض البقوليات التى نجدها أكثر كثافة فى بساتين المدينة العربية، وعلى سبيل المثال:

الفوم، والفول، والباذنجان، والخس، والبصل، وغيرها.

٥٤- تلك كانت لوحة للحالة التى بدت عليها الأسكندرية

= مصر، كنا مضطرين أن نرسل ليلاً، إلى الأسكندرية، والقاهرة، ورشيد، ودمياط، وكذلك إلى مدن أخرى، سرايا عديدة - كنا نفعل ذلك كما لو كان إجراء حربيا وقائياً - لمفاجأة وقتل هذه العصابات من الكلاب الجائعة والمتشردة، والتى كان نباحها الحزين والمرعب حقاً يبدو كما لو كان يستثير الناس ويحفزهم ليلا للقتال، ولم يكن يخطر على بالنا فى الواقع أن السكان كانوا سيسمحون مطلقاً، قبل مجيئنا، بترك هذا النوع من الحيوانات غير المرغوب فيها ليتضاعف عددها، لو أن هذه الحيوانات كانت معتادة على تعكير هدوء الليالى هكذا بنباحها، الذى لا يمكن - فى رأينا - أن يسببه إلا فزع، كان مجهولا قبل مجيئنا.

للجيش الفرنسى، قرب نهاية القرن الثامن عشر، وبعد ما يزيد على ألفى عام من تأسيسها.

وهنا، أصل إلى ختام وصفى للحالة الحديثة لهذه المدينة، ثم أمضى بعد ذلك إلى القسم الثانى من هذه الدراسة؛ تلك التى تهدف إلى معرفة حالتها القديمة، أيام مجدها وازدهارها تحت حكم الإغريق والرومان.

* * *

القسم الثانى

الحالة القديمة لمدينة الأسكندرية فى عهد امبراطورية الإغريق والرومان، مع مقارنة هذه الحالة بحالتها الراهنة

٥٥- بنيت المدينة التى أسسها فى مصر، فاتح آسيا وأسماها باسمه، مكان قرية كانت موجودة قبل ذلك بوقت طويل، وكانت تقع على شواطىء البحر المتوسط تجاه وبالقرب من جزيرة فاروس، وكان بهذه القرية التى تسمى راكوتيس[(١)] معبد صغير لعبادة إيزيس وسيرابيس Serapis ، وكان يقطنها الصيادون والرعاة الذين كانوا يشغلون هذه النقطة من لسان ضيق، تحيط به مياه المتوسط أو بحر الإغريق من الشمال، ومياه بحيرة ماريا Maréa من الجنوب. وقد قام الفرس، ومن قبلهم فراعنة مصر، بتحصين هذه القرية، وكذلك جزيرة فاروس، حتى يكونوا فى مأمن من إغارات الإغريق.

---

(١) راكوتيس حسبما يذكر سترابون، الكتاب السابع عشر، وراخوتى حسب الكتابة القبطية.

وهكذا كان سكان هذه الضاحية والذين يطلق عليهم اسم أبناء راكوتيس، فى حالة تمكنهم من صد اعتداءات هؤلاء القراصنة، الذين كانوا يروعون سواحلهم. يقول سترابون فى هذا الخصوص: "وحيث كان ملوك مصر الأوائل يشعرون بالكفاية بما لديهم، فإنهم لم يستشعروا كبير حاجة إلى استيراد أشياء من الخارج؛ ومن جهةٍ أخرى فقد أقام هؤلاء الملوك - حتى يرصدوا حركات البحارة (المغيرين) وبخاصة الإغريق منهم، أولئك الذين تدفعهم قحولة أراضيهم إلى الذهاب إلى مكان آخر للحصول على، أو لسلب مالا يجدونه عندهم - حامية مهمتها الدفاع عن سواحل هذه المدينة ضد الأجانب". ومع ذلك فلم تكن راكوتيس بالضرورة كبيرة فى الوقت الذى ظهر فيه الإسكندر، إذ إن هيرودت، الذى زار مصر عام ٤٦٠ ق م قبل ذلك بقرن، لم يشر إلى هذه القرية فى كتابه، فى الوقت الذى يذكر فيه مدن كانوب إلى الشمال الشرقى، وماريا وأبيس إلى الجنوب باعتبارها مدناً كبيرة.

ويرجع المؤلفون العرب تأسيس هذه القرية إلى عصر

مصراييم ابن حفيد نوح، ويرجعه آخرون إلى أمير اسمه شداد Chedad ، وهو سابق على مجيء الفاتح المقدونى بزمن طويل؛ وحيث كانت هذه المدينة مزودة بثلاثة أسوار حصينة، فلابد أنها قد دمرت، وأعيد بناؤها فى فترات مختلفة، على يد الآراميين، وأن شداد هذا لم يفعل سوى أن رممها، ثم على يد الفرس بقيادة بختنصر، وهو نفسه ملك الآشوريين الذى خرب ممفيس، والذى يسميه سفر الكتابة نابوخوذنصر؛ ويقول المقريزى[1] : إنه فى عام ٢٣٥٦ بعد الطوفان، العام ١٦٨٤ قبل تحطيم معبد أورشليم، فى السنة ١١٠ شمسية بعد هذا الحادث، أنشأ الإسكندر بن فيليب، وهونفسه الذى هزم داريوس وسيطر على فارس، هذه المدينة (الأسكندرية) ومنحها اسمه، ونقل إليها مقر امبراطوريته الذى كان قبل ذلك فى ممفيس. ويتفق كل المؤرخين لحد كبير على هذا الحادث؛ فمن المعروف أن مصر كانت تئن منذ مائتى عام، تحت سيطرة

---

(١) يذكر المستشرق لانجليه Langlés ، الذى ترجم المقريزى، ذلك المؤلف العربى الشهير بجغرافيته التاريخية عن مصر، فى طبعة باريس ١٨٠١ عن رحلات نوردان Norden ، المجلد الثالث، ص ١٥٧، تفاصيل هامة، رجعنا إليها، وستقابلنا مقتطفات منها فى هذه الدراسة.

الفرس، عندما تقدم الإسكندر - بعد أن أطاح بالكبرياء المستبد - نحو مصر التى استقبلته كمنقذ محرر، وفتحت بيلوز (تل الفرما كما يسميها العرب، وبالوظة الآن) مفتاح مصر، وممفيس التى كانت عاصمة لها، أبوابهما للفاتح. وبعد أن قدم القرابين إلى العجل أبيس فى مدينة ممفيس، ركب الإسكندر النهر حتى كانوب (أبى قير)، والتف حول ماريوتيس (مريوط) إلى الشمال، وتوقف عند راكوتيس التى أعجبه موقعها، لكى يفيد من الميزات الطبيعية التى يقدمها هذا الموقع، وقرر أن يؤسس هنا مدينة، وعهد بتنفيذ هذا المشروع إلى دينوكراتوس Dinocrate ، المعمارى المقدونى الشهير، فى نفس عام انتصاره دون شك، أى فى السنة ٤٢٢ من تأسيس روما، السنة ٣٣٢ق.م. وقد حدث بعد هذه الإجراءات، حسبما يذكر أريان Arrien [1] أن رحل الإسكندر، وهو الذى كان يرغب فى إعلان نفسه ابنا لجوبيتر، إلى معبد آمون ليستشير وحيه.

(١) أريان، الكتاب الثالث ، الفصل الثانى. انظر بخصوص أريان، الترجمة الجديدة لمؤرخ الاسكندر هذا، والتى قام بها شوسار Chaussard ، المجلد الأول، ص ٢٣٧.

وتبعاً لهذه الشهادات، فإنه لا ينبغى أن ينظر لفاتح آسيا باعتباره مؤسس الأسكندرية . وإنما باعتباره فقط قد قام بتوسيعها وتحصينها وتجميلها ليتخذ منها مقراً لامبراطوريته الجديدة. وحسبما يذكر ديودور وكينت كورس[1] Quinte Curce فإن السور الذى خطط لها، والذى رسم فى جزء منه بالجير وفى جزء آخر بالدقيق، كان يضم كل المساحة الواقعة بين البحر وبحيرة ماريوتيس، وكان طول الجهتين

---

(١) ديودور، الكتاب ١٧،ص ٥٨٩؛ وكينت كورس، الكتاب الرابع، الفصل السابع، ولاتزال هذه العادة متبعة حتى اليوم فى مصر، فلرمى أساسات بيت أو منشأة يقوم المعلم، أى البناء حيث لايعرف هناك لا مهندس معمارى ولاحتى مهندس عام كما هو الحال فى أوربا، بتخطيط التصميم على الأرض بواسطة الجص أو بودرة الجير، وعندما تحدد الأسوار بهذه الطريقة، وبدون تصميمات وبدون رسوم أو مقايسات تقديرية، تقام الجدران الرئيسية، وبعد ذلك يطلب المالك فى معظم الأحيان من المعلم هذا المكان أو ذاك، وهذه الحجرة أو تلك حسبما يتراءى له، وعلى الطبيعة، وينبغى أن ننسب إلى هذه العادة السيئة عدم التناسق فى المبانى، وكذلك الأخطاء التى نلاحظها فى مساكن العامة وكذلك قصور الكبار. وفى الواقع فكل المبانى مقسمة إلى حجرتين أو حجرات ثلاث كبيرة، تحيط بها على الدوام حجرات صغيرة أرضيتها ليست على مستوى واحد، أما السلالم التى يبلغ ارتفاع درجاتها من ٢٠ إلى ٢٥ سم، فهى على الدوام ضيقة ومعتمة وغير مريحة.

اللتين تمتدان بطول البحر والبحيرة يبلغ ٣٠ غلوة، أما الجهتان الصغيرتان الأخريان اللتان تعبران اللسان بعرضه فكان طولهما يبلغ من ٧ إلى ٨ غلوات حسبما يذكر سترابون و ١٠ حسبما يذكر آخرون، أما السور الذى يشبه سترابون شكله بشكل معطف مقدونى[١] فقد كان طول محيطه يبلغ ١٥,٠٠٠ خطوة، أى مايساوى حسبما يذكر دانفيل d'Anville ١٢٠ غلوة، وإن كان كينت كورس لا يقدره بأكثر من ٨٠ غلوة، وفى النهاية فإن المؤرخ يوسيفوس Josephe (فلافيوس جوزيفوس) يقدر طول المدينة بـ ٣٠ غلوة وعرضه بـ ١٠ غلوات[٢] . ونحن فى هذا كله نميل إلى ترجيح معلوما سترابون، حيث إن هذا المؤلف، فضلا عما يشتهر به مر صدق، قد خصص دراسة مفصلة لوصف مدينة الأسكندرية فى كتابه الجغرافى الذى تناول فيه مصر[٣] .

---

(١) Pline, Hist, nat.liv V, chap X, et Plutarque, vie d'Alexandre.

(٢) Josephe, Do bello Jud. liv, II ch XVI.

(٣) سنكف منذ الآن عن الإشارة إلى الكتاب السابع لسترابون الذى صحب اليوس جالوس Élius Jalus فى حملته على مصر، والذى نقل =

٥٦- يقول سترابون إن الأسكندرية كانت تفرقها من الشمال مياه البحر، ومياه البحيرة من الجنوب، ولم يكن من المستطاع الوصول إليها براً إلا عن طريق لسانين ضيقين يسهل الدفاع عنهما؛ وكانت تغطيها جزيرة فاروس التى كانت تشكل بالنسبة لها ميناءً طبيعياً فى منأى عن رياح الشمال والشمال الغربى، وحتى تتم الإفادة من هذه الميزة الكبيرة فقد تم توصيل اليابسة بالجزيرة عن طريق جسر ضيق يبلغ طوله ٧ غلوات ، يسمى كما يذكر هذا الجغرافى هبتاستاديوم Heptastadium ، ويقدر هيرتيوس Hirtius طوله بـ ٩٠٠ خطوة[١] . وكان هذا الجسر يتكيء من جهة المدينة على ميدان

= إلينا فى هذا الكتاب، الذي خصصه لتاريخ هذه المنطقة، تفاصيل خاصة عن مدينة الأسكندرية، ونحن في الواقع، مدينون لهذا العالم الجغرافى بالمعلومات التى لدينا عن تاريخ هذه المدينة فى الأزمنة القديمة.

(١) يقدر هيرتيوس طول هذا الطريق ٩٠٠ خطوة أي ٩/١٠ من الميل الروماني، أي ما يبلغ ٦٨١ قامة حيث يقدر الميل بـ ٧٥٦ قامة. ومن جهة أخرى فإن الهيتاستاد تساوي حسب الغلوة اليونانية ٦٦٥ قامة وهو ما يبلغ حوالي نصف غلوة (ستاد) بالاشارة إلى الطول الذى يعنيه سترابون. انظر:
Hirtius De bello Civili Chap CII.

كبير، يقع عند سفح جدران ينفصل عنها بواسطة قنطرة، يحميها من الأمام أحد الحصون، وعند طرفها الشمالى يغطى حصن ثان قنطرة ثانية تتصل بجزيرة فاروس. وتتكون هاتان القنطرتان من أعمدة عالية، مثبتة بالبحر، وترتفع إلى حد ما فوق سطح المياه، لتشكل ممراً حراً للسفن. ويقسم هذا الجسر الذى يتجه من اليابسة إلى الجزء الغربى من الجزيرة، الميناء الطبيعى إلى قسمين: يحمل القسم الغربى منه فى عهد الرومان اسم Eunostus Portus ، بينما كان يحمل القسم الآخر، الواقع إلى الشرق اسم Magnus Portus .

٥٧- وعند الدخول إلى الميناء الكبير، يجد المرء على يمينه برج الفنار، وقد أنشأه Sostrate de Cnide فى عهد بطليموس فيليب فى عام ٢٨٢ ق م. وكان هذا البرج، الذى شيد على صخرة تلاطمها من كل مكان مياه البحر، يرتفع لعدة طوابق، يحيط بكل طابق منها دهليز يدعمه صف من الأعمدة، ويحمل البرج هذا النقش "من سوستراتوس عن اكنيدوس بن ديكسيفان إلى الآلهة الراعية للملاحة". وفى أثناء

الليل يضيء هذا البرج، الذى يبلغ ارتفاعه ٤٠٠ قدم، شعلتين يراهما المسافر على بعد ٣٠٠ غلوة من عرض البحر، ذلك أنه يصبح من الضرورى، حيث إن الساحل منخفض وخطر بسبب كتله الرملية وشعابه الصخرية، وجود إشارة عالية ترى من أعالى البحار لترشد السفن بأمان إلى الميناء[1].

وهناك أثناء النهار، مرآة معدنية تلتقط صور السفن قبل أن تظهر فى الأفق. وكانت هذه السفن تضطر لكى تدخل الميناء أن تقترب بشدة من الفنار، حيث لم تكن الصخور ولا عاب الصخرية الواقعة إلى اليسار لتسمح لها بالاقتراب

---

(١) يلمح المرء على هذه المسافة ، التى تبلغ ٣٠٠ غلوة يونانية تساوى ٢٨,٥٠٠ قامة أو عشرة فراسخ بحرية، أنوار الفنار، ولم تعد هذه المسافة بذات بال بعد إقامة هذا البرج، ذلك أننا نستطيع بسهولة ونحن على شواطئ فرنسا أن نلمح أثناء الليل أنوار فنارى ميناء دوفر Douvres على السواحل الانجليزية، وتبلغ المسافة التى تفصل هذين الميناءين ٢١.٣٦٩ قامة تساوى سبعة فراسخ بحرية ونصف الفرسخ، تبعاً لحسابات السيدين بيكار Picard ولاهير le Hire ، ويذكر أبو الفداء وبعض المؤرخين العرب، أن المرآة كانت لا تزال موجودة فى برج الفنار فى العام ٩٢ من الهجرة (٧١٢ م) ، وهى الفترة التى انتزعت منه.

من هذه الناحية، وهو نفس مايحدث اليوم. وكان هذا البرج يستخدم كذلك بمثابة حصن.

٥٨- وكان الدفاع عن شمال مدخل الميناء، يتم عن طريق قصر حصين، بني فوق شناخ (أنف الجبل الخارج منه والداخل في البحر) يتوغل كثيراً داخل المياه، وكان هذا القصر يحمل اسم لوخياس Lochias ، ولكي يضيق المدخل أكثر من ذلك كثيراً فقد أقيم أمام هذا الحصن رصيف حاجز، ينهض فوق صخور في مستوى سطح الماء يطلق عليه اسم arcolôchias أي رأس لوخياس[*] وقد أشار إليه يوسيفوس باسم الساق التي صنعتها يد الإنسان[١]. ويرى المسافر عندما يواصل طريقه على اليسار، حتى القصور الذي يحيط به البحر. وعند بداية حاجز لوخياس، كان ثمة ميناء صغير مغلق خصص لسفن الملوك أي للبحرية الملكية؛ ويحدد لها سترابون مكاناً آخر يقع تجاه جزيرة صغيرة تسمى Anthirrhodos ، وكان لها هي الأخرى ميناء صغير به

(*) السلسلة حاليا. (المترجم).
(١) Josephe, De bello Judaico lib V .

قصر؛ وبمواصلة الطريق، يقابل المرء المسرح الذى كان يتصل بالقصر عن طريق ممر يطلق عليه بوليب[1] Polybe اسم Syrinx ، ويفصل هذا الممر ميدان الألعاب الرياضية عن المضمار (سباق الخيل) ؛ وبعد ذلك يرى البوزيديوم Posidium وبه معبد مخصص لعبادة نبتون Neptune[*] ، وهو مقام فوق لسان من الأرض يتجه إلى داخل الميناء، وقد أمر مارك أنطونيو بأن ينشأ فيه حاجز آخر أكثر توغلا فى البحر، والذى على قمته شيد القصر الذى أسماه تيمونيوم Timonium ؛ وبعد ذلك يأتى الكوزاريوم أو القيصرون Coesarium (معبد قيصر، وهى الرمل حاليا) والسيباستيوم Sebasteum ثم قصر الملوك وقد أقيمت من قبله مسلتان وأخيراً يأتى الأمبوريوم Emporium والأبوستاذ Les Apostases ، أما بقية محيط هذا الميناء، التى كانت تشغلها المنشآت التابعة لترسانات البحرية، فكانت تمتد حتى الهبتاستاديوم.

---

(١) Polybe, Excerpt. lib. V.

(*) إله البحار.

٥٩- وفيما وراء الهبتاستاديوم يجد المرء الميناء الثانى الذى كان يحمل اسم أونوستوس Eunostus وقد كان الإقبال عليه أقل بكثير من الإقبال على الميناء الأول على الرغم من أنه أوسع منه لغير ما حد؛ وكان يضم ميناء آخر يسمى كيبتوس Kiptos أى القوس وكان مزوداً بكل ما يتناسب مع الخدمة البحرية، كما كان يستقبل مياه الترعة التى كانت تعبر المدينة لتتصل ببحيرة ماريوتيس؛ وفيما بعد هذه الترعة بقليل كانت تنتهى المدينة لتنهض تحت أسوارها مباشرة قرية نكروبوليس Necropolis مدينة الموتى أو الجبانة.

ويتمتع ميناء اونوستوس[1] من الداخل بهدوء تام، ك يسمح عمقه لأضخم السفن بالاقتراب من الرصيف، لَ الشعاب الصخرية التى تتكسر عليها الأمواج كانت تمد

---

(١) تتناسب تسمية Eunostus Portus ، أى «ميناء العود الحميد» على الدوام مع ميناء الأسكندرية القديم (الميناء الغربى)، الذى كان الدخول إليه بالغ اليسر، بسبب رياح الشمال، والغرب، والشمال الغربى، التى تسود فى غالب الأحيان، والذى يكون الخروج منه، لنفس السبب، بالغ المشقة لحد كبير، حيث تكون هذه الرياح عكسية بشكل مباشر.

الدخول إليه من جهة العرض.

٦٠- وقد بنيت الأسكندرية فى عهد بطليموس بأنقاض هليوبوليس وممفيس وطيبة، كما زينت بأعمدة هذه المدن ومسلاتها التى نقلت اليها بتكاليف باهظة، ويخترق الأسكندرية من الداخل شوارع مخططة بطريقة تسمح باستقبال نسيم رياح الصيف القوية، أى أن الشوارع تتجه من الشمال إلى الجنوب، ومن شمال الشمال الغربى إلى جنوب الجنوب الشرقى، وتستطيع العربات أن تمر فيها بحرية، كما يخترق المدينة بطولها وعرضها شارعان كبيران، يبلغ عرض الواحد منهما ما يقرب من مائة قدم، يتقاطعان بزوايا مستقيمة عند منتصفها، ويبلغ طول أكبرهما حسبما يذكر سترابون ٣٠ غلوة ابتداء من منشئه عند بداية كانوب، حتى نهايته من جهة الغرب عند بوابة نكروبوليس (وهو شارع طريق الحرية حاليا). ويقدم يوسيفوس نفس المقاييس وإن كان ديودور يقدره بـ ٤٠غلوة، ولكنه يضيف إليه دون شك امتداده إلى الضاحية الشرقية. أما الشارع الكبير الآخر، الذى يعبر المدينة

بعرضها، فقد كان يبلغ امتداده ٧-٨ غلوات، بادئا من موانىء النهر فى ماريوتيس، لينتهى عند مبانى الترسانة البحرية فى الميناء الكبير (شارع النبى دانيال حاليا).

وعند نقطة تقاطع الشارعين الكبيرين، أى حوالى وسط المدينة، نلاحظ ميداناً فسيحاً يقسمها إلى أربعة أقسام أو أحياء؛ لكن فيلون Philon ، معاصر سترابون[١] ، يذكر أن الأسكندرية كانت فى عهده تنقسم إلى خمسة أقسام تحمل الحروف الخمسة الأولى من الحروف الهجائية الإغريقية. وقد أطلق اليهود اسمهم على اثنين من هذه الأحياء، حيث كانت توجد مساكنهم الخاصة بهم. ويقول يوسيفوس[٢] إن اليهود كانوا يسكنون جزءا من حى القصور على شواطىء البحر؛ وقد أطلقت أسماء أخرى على هذه الأحياء، التى كان أقدمها، وأكثرها أهمية، هو حى القصور أو حى بروخيون Bruchion

---

(١) فيلون، كاتب يهودى، كان يعيش فى الأسكندرية من عام ٣٠ - ٤٠ م انظر .De pells Alex in Flaccum, p. 753

(٢) يوسيفوس، كاتب يهودى، كان يعيش فى الأسكندرية من عام ٦٠ - ٧٥م.

وحى راكوتيس Rachotis أو سيرابيوم Serapeum .

٦١- وكان حى بروكيون يشمل كل الخلاء الواقع بين الميناء والساحل إلى الشرق، ابتداء من لوخياس Lochias (السلسلة) حتى بوابة كانوب؛ وكان يضم القصور والميناءين: الميناء الملكية، وميناء الجزيرة الصغيرة انترودوس Anthirrhodos ، والمسرح والدهليز الخاص به، والبوزيديوم Posidium ، والتيمونيوم Timonium والكوزاريوم أو القيصرون Coesarium ، وميدان الألعاب الرياضية والمصارعة والمضمار (مكان ترويض وسباق الخيل) أو مياندروز Meandros والمتحف والجمناز، وهو عبارة عن مبنى واسع تزينه الأروقة والأعمدة لمساحة يزيد طولها على غلوة وهو مخصص لدراسة العلوم. وترتبط هذه المنشأة بقصر الملوك، وتمتد حتى بوابة كانوب، وكانت ترى به المكتبة الشهيرة، التى كان مؤسسها إما بطليموس سوتر (الأول) Ptolemé Soter وإما بطليموس فيلادلفيوس

P.Philadelphe [1] وكانت ترى هناك كذلك معابد أخرى وغابات مقدسة. هنا صد يوليوس قيصر قوات البطالمة وأهل الأسكندرية، ومنذ ذلك الوقت حصن هذا الحى بسور خاص عزله عن بقية المدينة، وجعل منه شكلا من أشكال القلاع، وقد صمد لهجوم آخر في عهد الأمبراطور كلوديوس الثانى Claude II فى عام ٢٧٠ م، ثم تحطم الحى تماماً على وجه التقريب بعد بضع سنوات فى عهد أورليان فى عام ٢٧٥. ويذكر سان جيروم S.Jerôme أن الحى كان فى عصره، أى حوالى ٤٢٠ م، منعزلا عن المدينة وأنه كان يستخدم كمأوى لبعض الزاهدين المنعزلين؛ وبعد ذلك بقرن واحد، فى عصر سان إبيفان S.Epiphane ، أصبح الحى خراباً تماماً.

---

(١) تكونت المكتبة على يد بطليموس فيلادلفيوس، وتوسعت على يد خلفائه وكانت تضم ٤٠٠ ألف مجلد، وقد أحرقت جزئيا أثناء حصار الأسكندرية، على يد يوليوس قيصر فى العام ٧٠٦ من تأسيس روما، العام ٣٧ ق. م، حيث وصلت نيران السفن الراسية فى الميناء إلى حى الملوك، وأحرقت جزءاً كبيراً منه، وكذلك من المكتبة.

ولا نفصل هنا المتحف عن الجمناز الذى لم ينشأ منه إلا مبنى واحد، على الرغم من أن سترابون، فيما يبدو، يفصله عنه ليجعل منه مبنى قائماً بذاته.

٦٢- وكان حي راكوتيس يشـــتمل على معبد سـيرابيس Sérapis ، الذى أعيد بناؤه على يد بطليموس ابن لاجوس Lagus ، مكان معبد صغير كان مخصصاً لسيرابيس وإيزيس Isis معاً؛ ويقول سوزومين Sozomene إن هذا المعبد كان يقع على ربوة صغيرة إلى الشرق من الترعة؛ ويقول روفان[1] Ruffin الذى زاره قبل بضع سنوات

---

(١) يقول روفان: إن تيوفيل، وهو فى سبيله للقضاء على الوثنية نهائياً فى كل مصر، قد حصل فى عام ٣٩٠ م من الأمبراطور تيودوسيوسي Théo-dose على مرسوم يسمح له بأن يدمر كل المعابد المصرية، وتبعاً لأمر من الامبراطور قسطنطين Constantin ، قام بطريرك الأسكندرية بانتزاع تمثال سيباريس عام ٣٢٨ م وكذلك المقياس الذى يستخدم فى ملاحظة مياه النيل، وقد أحرق الوثن، أما المقياس أو الـ Separi فقد نقل إلى كنيسة مسيحية، فى ذلك الوقت، من كنائس المدينة هى كنيسة سان أثناز التى بناها جريجوار الأريوسى Gaégoire l'Arier ، وعندما أراد الامبراطور جوليان Julien أن يعيد بادة الأوثان، فقد أمر أن ينقل إلى السيرابيوم، المقياس الذى كانت بواسطته تحدد درجات فيضان النيل، وقد بقي المقياس هناك حتى سنة ٣٩٠ م، وهو الوقت الذى حطم فيه تيوفيل نهائيا هذا المعبد، حسب أوامر الامبراطور تيودوسيوس.

ويطلق المصريون اسم سيرابيس Sérapis، أو بالأحرى شيرابى Cherapi على المنشآت المخصصة للملاحظة السنوية لفيضانات النيل، صانعة الخصوبة والوفرة اللتين كان المصريون يقدسونهما تحت اسم =

من قيام تيوفيل Thèophile بطريرك الأسكندرية بتدميره نهائياً فى عام ٣٩٠ م ، إن هذا المعبد قد بنى فوق مرتفع ليس من فعل الطبيعة وإنما من صنع الإنسان، وهذا المبنى الواسع، كما يضيف روفان، كانت تدعمه شرفات مقدسة يصعد إليها عن طريق سلم تبلغ درجاته مايزيد على المائة، وكان داخله، الذى تزينه الأعمدة والأروقة، يضم حجرا مختلفة، مخصصة للأسرار المقدسة وكذلك لمساكن الكم الموكلين بهذه الأسرار. وكان يوجد بهذا المعبد مقياس للن مخصص لسيرابيس وكان يحمل اسمه ، وقد أمر قسطنطين باقامته فى عام ٣٢٨ م ، لكى ينقل بعد ذلك إلى

= أبيس.

ويقول جابلونسكى Japlonski ، إن اسم سيرابيس هذا يتكون من كلمتين مصريتين، احتفظت بهما اللغة القبطية هما : سير Ser ، أو شير Cher ، أو سار Sar ومعناها كلها عمود؛ وأبيس Apis ومعناها مقياس.

وهكذا ، فقبل إنشاء الأسكندرية، كانت لمفيس سيرابيوم أى معبد مخصص لأبيس، وكان ينهض فوق ربوة صغيرة تسمى سينوبى Synopi (أى المكان الذى يتم فيه القياس)، وكان المعبد مخصصاً لدفن العجل أبيس (مأخوذ من مذكرات المسيو لانجليه. Langlés (Voyage de Norden, Tome III p. 236 et 241)

كنيســة الأســكندرية، ولاتزال توجـد بها حتى اليوم المكـتبة الثانية التى أثرت بما تبقـى من مكتبة المتحف[1] ، التى

---

(١) أقيمت المكتبة الثانية بعد وقت قصير من حريق مكتبة المتحف فى عهد يوليوس قيصر، وكانت تضم ٥٠٠,٠٠٠ مجلد عندما تحولت إلى رماد، تنفيذا لأوامر عمرو (بن العاص) فى العام ٢٢ من الهجرة (٦٤٢م)، فقد كتب الخليفة عمر إلى قائده الذى استولى لتوه على درية (مامعناه) « إذا كانت هذه الكتب لاتضم إلا ما جاء به فاحرقها إذ لا حاجة لنا بها، وإذا كانت تضم شيئاً مخالفاً رمها لخطورة ما تحتويه». ويقول التاريخ (*)، إنه تبعاً لهذا الأمر ى لايتصور صدوره عن رجل متحضر، فقد بعثرت كل كتب هذه تبة، ووزعت على حمامات المدينة لاستخدامها فى التدفئة، وظلت شتعل لمدة ستة شهور، وكان قد بنى منذ وقت طويل، فى مكان المعبد، كنيسة تحمل اسم الامبراطور أركاديوس Arcadius والتى يظن بعض المؤرخين دون سند، أنها اليوم هى الجامع المسمى جامع الألف عمود الذى يقول موروث البلاد إنه ترجمة لكلمة السبعين.
ووجود هذه المكتبة أمر يجادل فيه، عن سوء نية، بعض المؤرخين المحدثين، فهذه قد تكونت من بقايا مكتبة المتحف، وهى الأقدم، وقد بينا ن حى بروخيون الذى كانت تقع فيه المكتبة (الأقدم) كان قد تهدم ماماً منذ بداية القرن الخامس ، وقبل نهاية القرن الرابع بقليل.
وقد قدم المسيو لانجليه Langlès فى النبذ التى ساقها، والتى استخلصها من المؤرخين، المعلومات التى من شأنها أن تثبت الوقائع (التى انتهينا إليها).
انظر : Voyage de Norden =

أحـرقها من قبل يوليوس قيصر Jules Cèsar [1].

= (*) يحق لنا أن نستشهد هنا بما يسوقه حول هذا الموضوع مؤرخ فرنسى معاصر هو جاستون فييت فى كتابه :

Prècis de l'Histoire d'Egypte par divers historiens et archèo-logues tome II, par Gaston Wiet, l'Egypte musul-mane, de la Conquête arabe a la Conquête ottomane-le Caire, 1932 p. 111-112.

حيث يستبعد هذا المؤرخ تماماً، تلك الرواية التى يوردها عبد اللطيف البغدادى عن أمر الخليفة عمر بحرق مكتبة الاسكندرية، وهى الرواية التى بنى عليها كل المؤلفين فى الغرب موقفهم فى هذا الخصوص.

ويرى جاستون فييت أنه على الرغم من أن هذا الحادث ممكن الوقوع أثناء الحروب القديمة، ويستشهد على ذلك بحرق المغول لمكتبة بغداد وحرق الفرنجة لمكتبة تونس، فإن الرواية فى حد ذاتها غير صحيحة، ويرى أن بالإمكان إهمالها كلية، ويستند فى ذلك على ما يلى :

١- أن هذه الرواية لم ترد إلا عند عبد اللطيف البغدادى، وبعد مرور ٢٠٠ (مائتى) سنة على الحادث المزعوم.

٢- أنها لم ترد عند مؤرخين عرب ثقاة مثل الكندى وابن عبد الحكم والبلاذرى والطبرى والمسعودى.

وقد يكون هذا كافياً لدحض ذلك الاتهام الذى يحاول المؤلف أن يلصقه بالعرب والمسلمين (المترجم).

(١) بنى فوق معبد سيرابيس، كنيسة كانت تحمل اسم أركاديوس، بتضرع من يوحنا المعمدان، وقد افتتحت فى احتفال مهيب.

(Histoire du Bas - Empire, tome per, liv XXIV).

٦٣- أما السوما Sôma (*) التى كانت تتبع حى القصور خسبما يذكر سترابون، والتى كانت تضم قبر الإسكندر، فكانت تقع حسبما يقول تاتيوس Tatius عند نحو مركز المدينة، حيث كانت تعد جزءاً من حى يحمل اسمها.

٦٤- وفى أحياء أخرى.من المدينة، كان المرء يجد مبانى عامة مختلفة لم تتحدد مواقعها بدقة، مثال ذلك مبنى الستاديوم Stadium والفوروم Forum حيث كان يتم التقاضى. أما البانيوم Panium (**) الذى يقع على مرتفع ينتهى بقمة مدببة، فيبدو أنه صخرة طبيعية على الرغم من أنه من صنع الإنسان، ويتم الصعود إليه من الداخل بواسطة سلم دائرى لولبى، ومن قمة هذا المرتفع يشرف المرء على كل المدينة؛ وأخيراً نرى المدرج أو السيرك، وكذلك بعض معابد

(*) السوما أو السيما ومعناها الجبانة الملكية وتقع كما يذكر محمود .. الفلكى فى كتابه عن الأسكندرية القديمة عند تقاطع طريق الحرية مع شارع النبى دانيال. (المترجم).

(**) البانيوم، تل صناعى أقيم تعظيما للاله بان بحيث تشرف قمته على المدينة كلها، وتحيط به حديقة جميلة. ويظن بأن بقايا هذا التل هى ما نعرفه اليوم باسم كوم الدكة. (المترجم).

تهدمت كانت مبنية عند نيكوبوليس Nicopolis .

٦٥- أما القناة التى تربط بحيرة ماريا بميناء أونوستوس Eunoste عن طريق الكيبوتوس Kibôtos (الميناء الصغير الداخلى) ، فتعبر الطرف الغربى من المدينة ، وكانت القناة تسمى ترعة ماريا ، وفيما بعد ترعة شديا Schedia ، وكانت هذه الترعة المتفرعة من الفرع الكانوبى عند قرية شديا (كوم الجيزة حاليا) ، تبعد عن الأسكندرية من جهة الشرق، بـ ٤ شونات (١٢,٠٩٦ قامة أى ٢٣٥٧٥ ٥٤/١٠٠ م) وكانت تنقل كما هو شأنها اليوم، المياه العذبة إلى المدينة. يقول سترابون "عندما يغادر المرء الأسكندرية عن طريق بوابة كانوب، يجد عن يمينه ترعة تصل إلى البحيرة وتؤدى إلى مدينة كانوب، ويستطيع المرء أن يبحر عن طريق البحيرة نحو النهر ثم يتوجه إلى كانوب وإلى شديا، وقبل أن يمضى إلى إليوزين Eleusine (*) يجد على يمينه ترعة تؤدى إلى شديا، تبعد عن الأسكندرية بـ ٤ شونات [١]".

(*) النزهة حاليا.

(١) انظر دراسة عن القناة التى تربط بين البحرين، القسم الثانى، الفصل الأول، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ١٢٤ - ١٣٠.

وكانت مياه النهر توزع، بواسطة مشاريع هندسية تحت أرضية، على الآبار والخزانات المحفورة تحت المدينة؛ ويقول هيرتيوس Hirtius الذى أشرنا إليه من قبل، وهو يتحدث عن هذه الخزانات والآبار: "يكاد يكون محفوراً تحت الأسكندرية بأكملها خزانات سفلية، تتلقى مياه النهر، وتأتى إليها هذه المياه عن طريق مسارب ثم توزع على خزانات بيوت الخاصة حيث تركد وتنقى شيئاً فشيئاً؛ ولا تشرب المدينة مياها أخرى، إذ لا توجد بها مطلقاً أية عيون طبيعية. ويضطر العامة لاستخدام المياه التى ينزحونها من مجرى النهر أو الترعة، ولكن فحيث إن هذه المياه عكرة للغاية، فإنها تسبب أمراضاً مختلفة." ويطلق أوزون Ausone على الأسكندرية ، وهو يتحدث عن العدد الهائل بها من الخزانات أو الصهاريج المخصصة لحفظ المياه اللازمة لاستهلاك سكان هذه المدينة، «بيت النهر».

٦٦- ويقول ديودور[١] إن عدد سكان هذه المدينة يتناسب

---

(١) ديودور الصقلى، الكتاب السابع عشر.

مع اتساعها إذ كان قد بلغ في عهد أغسطس ما يزيد على ٣٠٠,٠٠٠ مواطن حر، الأمر الذى يفترض وجود شعب يبلغ تعداده حوالى ضعف هذا العدد، إذا ما أضفنا إلى هؤلاء عدد العبيد، لكن هذا الرقم يبدو لنا مبالغا فيه، ومع ذلك فإن كليتوفون Clitophone يقول أثناء حديثه عن شعب الأسكندرية، إنه "عندما يتأمل هذه الألوف من سكانها، فإنه لايستطيع أن يتصور أن من الممكن أن توجد مدينة كبيرة لحد تستطيع معه أن تضم هذا العدد الهائل، كما أنه - من جهة أخرى - لا يستطيع أن يتصور وجود عدد ضخم من الناس لحد يستطيعون معه أن يشغلوا امتداد هذه المدينة الواسعة".

٦٧- كانت الأسكندرية وطن كل من: أوريجين Origène، إقليدس Euclide ، إبيان Appien، هيروديان Herodien؛ فيلون Philon..إلخ، وإلى مدارسها الأكاديمية الضليعة جاء مانيتون Manethon، وإيراتوستين Eratosthene الذى كـان أول أمين لمكتبة المتحف التى أنشـأها بطليموس إيفرجيتوس، وكـذلك

جـاء العـالم الجـغـرافى بطليمـوس بالإضافة إلى آخرين.
جاء هؤلاء جميعاً لينهلوا من المعارف التى نقلوها إلينا فى
كتاباتهم، ومن ناحية أخرى، فقد وضع أتباع كل من
كليمـان Clément ، وجـيروم Jérôme وجريجور،
وأغسطس، مؤلفاتهم بالأسكندرية.

٦٨- كانت جزيرة فاروس، كما سبق القول مأهولة قبل
مجيء الاسكندر بوقت طويل، وقد حصنها البطالمة قبل
يوليوس قيصر كما نعرف ذلك من تاريخ حربه فى الأسكندرية
حيث لقى الكثير من المصاعب لكى يستولى عليها، وقد كان
لقرية فاروس، شأنها فى ذلك شأن المدينة، أبراج عالية تربط
ما بينها جدران تقفل القرية بسور منيع بعض الشيء، وكان
يقطن هذه القرية بحارة يمارسون القرصنة، وكانت مياه النيل
تأتى إلى كل مكان من هذه المدينة عن طريق مشروع هندسى
بنى بطول الهيتاستاد، وقد تحطم هذا المجرى، وكذلك قناطر
هبتاستاد، بالإضافة إلى هذه القرية الرائعة، أثناء حصار
الأسكندرية على يد يوليوس قيصر.

٦٩- وعند الخروج من الأسكندرية، عن طريق بوابة كانوب، يجد المرء على يساره ضاحية اليوزين Eleusine (النزهة) والتى يشطرها من طولها شارع كانوب الكبير والتى تحاذى البحيرة والبحر، والتى خططت شوارعها على غرار شوارع الأسكندرية، ويقابل المرء بعد هذه الضاحية مجرى هندسيا يسير بطول الساحل ويتجه إلى كانوب، وفيما بعد اليوزين، كان ثمة سيرك أو هيبودروم Hippodrome ينتهى عند نيكوبوليس.

٧٠- وتقع مدينة نيكوبوليس (ومعناها النصر) على شاطىء البحر، وتبعد عن الأسكندرية بـ ٣٠ غلوة حسبما يذكر سترابون، وبـ ٢٠ غلوة حسبما يذكر يوسيفوس، وقد سميت كذلك نسبة إلى الانتصار الذى أحرزه أوكتافيوس أغسطس على مارك أنطونيو، وكانت تقام هناك احتفالات بهذه المناسبة، مرة كل خمس سنوات.

٧١- أما كانوب (أبوقير)، تلك المدينة التى اشتهرت بمعبد سيرابيس المقام فيها، وبورعها وفجورها، فكانت تقع على بعد ١٢٠ غلوة من الأسكندرية، وكانت تقوم على ضفاف

الترعة التى تؤدى إلى فنادق صغيرة، كان يطرقها على الدوام ألوف الرجال والنساء، الذين كانوا يتوجهون كل عام إلى هذه المدينة، للاحتفال بالأعياد التى يسودها المجون الجامح الذى تتميز به الأعياد الباخوسية عادة.

٧٢- وإلى ما وراء كانوب، كانت تقوم هيراكليوم Heracleum التى تقع عند رأس خليج أبى قير، والتى أطلق عليها - مرة أخرى- اسم معبدها القديم الذى كان مخصصاً لهيرقل.

٧٣- أما فتحة كانوب التى كانت تلى مباشرة هذا الموقع الأخير، مشكلة بذلك النقطة الشمالية للقاعدة الغربية للدلتا، فكانت تقع حسبما يذكر بلين Pline على بعد يساوى ٩٠٧٢ قامة أى ١٧٦٨١ ٦٦/١٠٠ م إلى الشرق من الأسكندرية.

٧٤- أما قرية نكروبوليس، أى مدينة الموتى، حيث كان هذا المكان مخصصاً كلية لدفن موتى الأسكندرية، فكانت تبدأ من نفس جدران السور، وتمتد إلى الجنوب الغربى من البحر

والبحيرة(*) .. ولقد كانت قرية بمعنى الكلمة، تحتوى على كثير من البيوت المزدانة بالحدائق، توجد تحتها أماكن سفلية نسميها مقابر.

٧٥- وأخيراً، فقد كان يوجد بعد هذه "القرية" قصر الشرسونيز La Chersonèse ، المبنى على قمة رأس يقع على بعد ٧٠ غلوة من الأسكندرية، وقد حصن هذا القصر، وكانت له حامية، وهو نفس المكان الذى نطلق عليه اليوم اسم الشيخ (العجمى) ، وهو الذى يقفل خليج الأسكندرية من جهة الجنوب الغربى.

والآن ، بعد أن قدمنا كل هذه المعلومات التى حصلنا عليها عن الأسكندرية القديمة، والتى كانت ضواحيها تغص بمساكن جديدة وفخمة، والتى تغطيها اليوم الرمال وكل قحولة الصحراوات الليبية، فإننا نمضى إلى الجزء الأخير من الدراسة والذى يقدم مقارنة مدعومة - حيث هو يتفرع عن القسمين السابقين - عن حالتى هذه المدينة العريقة.

(*) كانت هذه الجبانة الغربية للأسكندرية تشغل المناطق التى تسمى حاليا، الانفوشى، كوم الشقافة، الورديان. (المترجم).


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الثالث

فحص موثق عن حالة مدينة الأسكندرية بشكلها القديم مع مقارنتها بحالتها فى شكلها الراهن

٧٦- بعد أن قدمنا فى القسمين السابقين حالة مدينة الأسكندرية فى عصور حياتها المختلفة، سوف نشير - حسب المعلومات التى حصلنا عليها أثناء إنشاء الخريطة الطبوغرافية بهذه الدراسة - إلى وضع أكثر الأماكن والمبانى فى هذه المدينة شهرة، وسوف يقودنا ذلك إلى فحص موثق، تدعمه بعض الأسئلة التاريخية والجغرافية، التى من شأنها أن توضح مدى صحة الرأى حول الانتقادات الموجهة حول قيمة المقاييس الطولية التى قدمها المؤرخون القدماء، والتى تدور حول اتساع هذه المدينة.

٧٧- كانت تنقص الأبحاث العلمية، كلاً من بونامى Bo-namy ودانفيل d'Anville [(١)] وهما اللذان قد عالجا كلاهما

---

(١) قدم المسيو بونامى Bonamy - عضو أكاديمية النقوش والفنون الجميلة - ثلاث دراسات عن مدينة الأسكندرية، نشرت فى عام ١٧٣١ =

هذه المسألة، وقد فحصنا أبحاثهما عند وضع تصميم دقيق

= في مجلد دراسات هذه الأكاديمية المجلد التاسع، ص ٤١٦. وقد رجعنا إلى النبذ الدقيقة لهذا الأكاديمى، والتى ذكرنا بعضها فى هوامش هذه الدراسة.

وفى حوزتنا بالإضافة إلى ذلك، دراسات عن مصر، ألفها دانفيل، وقد ذكرنا مؤلفه هذا - الذى استخدم كدليل الجيش الفرنسى - كمصدر له احترامه فى هذه الدراسة، وإن كنت أعتقد أن بالإمكان على الأقل، استبعاد بعض آرائه. ويمتدح دانفيل أبحاث بونامى، لكنه يضيف بأن ذلك لا يعنى أنه يستطيع أن يمتدح بالمثل خريطة الأسكندرية التى ألحقها هذا الأكاديمى - بونامى - بدراساته ، إذ يقول بونامى إنه قد حصل على هذه الخريطة من مكاتب البحارة؛ ولذلك فلابد أن تكون هذه الخريطة غير كاملة، ولايمكن القياس عليها بالمقارنة بتلك الخريطة التى قدمها دانفيل على اعتبار أنها الأفضل، والتى ضمنها هذا الجغرافى فى دراساته المطبوعة فى عام ١٧٦٦.

وقد قدم نوردان Norden ، الذى سافر إلى مصر فى عام ١٧٣٩، خريطة أقل خطأ. ويقول هذا الرحالة : إن هذه الخريطة قد تم إنجازها على يد فرنسى يأسف لعدم معرفته باسمه.

وفى الواقع، فقد كان إنجازاً كبيراً فى ذلك الوقت، أن يستطيع رحالة بوسائله البسيطة أن يقدم تخطيطاً متصوراً لمدينة مصرية، بل ومدينة شرقية على الإطلاق.

وفى عام ١٨٠٢، أورد المسيو شوسار Chaussard فى كتابه تاريخ الحملات على مدينة الأسكندرية Histoire des expèditions d'Alex الذى ترجمه عن آريان المؤرخ الإغريقى فى القرن الثانى - أورد وصفاً موجزا لحالات ثلاث متتابعة لمدينة الأسكندرية، ويتطابق ما يقوله هذا المؤلف عن المدينة تماماً مع الرأى الذى قدمه دانفيل فى دراساته عن =

لخريطة الأسكندرية، ووجدنا أنه كانت تنقصهما على وجه الخصوص معرفة الأماكن، وهى المعرفة التى توفرت لنا، حتى يستطيعا أن يحددا بدقة الحالة القديمة للمدينة؛ وقد بين دانفيل، وهو المشهود له بالنظر الثاقب فى بحوثه الجغرافية، أن الأسكندرية كانت، بما لا يدع مجالا للشك، تشغل مساحة أكبر بكثير من تلك المساحة التى يحددها السور الحالى، الذى يقول عنه إنه لابد أن يكون قد بنى حديثاً، ويتطلب هذا الظن من جانبه - ونحن نشاطره الرأى فيه - المزيد من الدرس والمناقشة.

٧٨- أما الاختلاف الذى يوجد، نسبياً، فى أطوال هذه المدينة فى تقارير المؤلفين القدماء: ديودور، سترابون، بلين، كينت كورس، يوسيفوس، وكذلك هذا التفاوت الهائل فى المقاييس التى لم توضح بدقة فى كتاباتهم، فإنه يلقى بالشك حول تحديدهم للأماكن نفسها.

= مصر صفحات ٥٢ إلى ٦٣، وقد رسمت الخريطة التى ألحقها المسيو شوسار بكفاءة، وهى الخريطة التى أصاب التلف بعض أجزائها، رسمت تبعاً للخريطة التى أنشأها السادة المهندسون العسكريون والمدنيون التابعون لجيش الشرق، والتى كان مقياسها، وهى ملحقة بهذه الدراسة، ٠,٠٠٤ مم لكل ١٠٠ متر.

وقد شاهدنا فى القسم السابق أن معطيات هذه المقاييس تتنوع كما يلى:

البيانات التى يقدمها المؤرخون القدامى	المقاييس			
	الطول	العرض	الواجهة	المحيط
ديودور مقدراً بالغلوة	٤٠	١٠	٤٠٠	١٠٠
سترابون مقدراً بالغلوة	٣٠	٧–٨	٢٢٥	٧٥
كينت – كورس مقدراً بالغلوة	٣٠	٧–٨	٢٢٥	٨٠
يوسيفوس مقدراً بالغلوة	٢٠	١٠	٢٠٠	٦٠
بلين مقدراً بالخطوة الرومانية	٢٠	١٠	٢٠٠	١٢٠

ويظل الأمر على نفس الدرجة من الصعوبة، عندما نحاول أن نكتشف فى هذه البيانات المختلفة طول المقياس المتخذ كوحدة، حيث لم يحدد هؤلاء المؤلفون طول الغلوة، فنحن مثلا نعرف فى دراسة سترابون عدداً كبيراً من الغلوات المختلفة،

وبمعنى آخر فإن كل المؤلفين القدامى الذين كتبوا عن الأسكندرية كانوا إما إغريقاً أو رومانيين، فهل كانوا على الدوام يستخدمون مقاييس بلادهم؟ هذا ما قد نجازف بالأخذ به، ومع ذلك فلم يكن هذا - فيما يبدو - هو ما يحدث على الدوام، إذ كانوا فى غالب الأحيان، وببساطة شديدة، يأخذون بالمقاييس المصرية، كما يذكرها لهم علماء مصر، أو أولئك الذين سبقوهم فى رحلاتهم.

وإذا ما قبلنا، مع المسيو لارشيه، مترجم هيرودت الحاذق، أن سترابون لم يتحدث إلا عن الغلوة الأولبية، فسوف نتبين كيف ستكون المسافات التى يقدمها عن مدينة الأسكندرية، وعن الأماكن المحيطة بها، بالغة الضخامة لحد مبالغ فيه[١] . أما الثلاثون غلوة التى يعطيها ذلك الجغرافى

---

(١) يبين سترابون فى كتابه الثانى طول الغلوة الواردة بجغرافيته على نحو نستنتج منه أن طول الغلوة عنده يبلغ ١/٨ الميل الرومانى أى ١٢٥ خطوة، أى أن الميل الرومانى يحتوى على ثمانية غلوات إغريقية؛ ومن المعروف أن الميل الرومانى يساوى عادة ٧٥٥ ياردة و ٤ أقدام وثمانى درجات، ويقربها دانفيل إلى ٧٥٦ يادرة أى أن الثمن يساوى ٣ قدم و٩٤ ياردة (الترجمة هنا بتصرف وباختصار).

للشارع الكبير الذى يبدأ من بوابة نكروبوليس لينتهى عند البوابة الكانوبية فإنها تساوى ٢٨٥٠ قامة (= ٧٥/١٠٠ ٥٥٥٤ م)، لكن الخريطة الكبيرة التى رسمت بمقياس ٠,٠٢٥ م لكل مائة متر لا تبين هذه المسافة، ابتداء من البوابة الكبيرة على الميناء القديم، حتى بوابة رشيد إلا ٣٢٢٥ متراً أى ١٦٥٤ قامة وأربعة أقدام. وفى هذه الحالة يظل هناك فرق يبلغ ١١٩٦ قامة أى ١٢ غلوة فى أقل طول من أطوال المدينة.

ويقدر يوسيفوس هذه المسافة نفسها بـ ٢٠ غلوة من نفس النوع، أى ١٢٥ خطوة لكل غلوة أى ما يبلغ ١/٨ الميل الرومانى. وبذلك لا يبلغ طول هذا الشارع حسب تقدير هذا المؤرخ إلا ١٩٠٠ قامة أو ١٧/١٠٠ ٣٧٠٣ مترات أى ما يزيد على طول المدينة الحديثة بـ ٢,٥٠ غلوة إغريقية.

٧٩– ومن هنا نرى أن هذه البيانات لا تتفق كذلك مع بقية المسافات. وقد حاول دانفيل، وهو يسعى إلى تدعيم الرأى الذى رجحه، وهو أن السور الحالى لمدينة الأسكندرية أصغر لحد كبير من سورها القديم، وذلك حين لم يجد فى الخريطة

التى كانت معه لهذه المدينة، المقاييس اللازمة لكى يؤسس عليها، حاول أن يعطى للغلوة الواحدة طولا لا يمكن بمقتضاه توسيع حدودها. وفى هذا الصدد فإنه يحدد موقع الهبتاستاد، الذى كان لا يزال غير محدد، فى المسافة التى توضحها خريطته بين البرج الشمالى فوق الميناء القديم والبرج الواقع إلى الشرق من شبه جزيرة فاروس على الميناء الجديد. ويحدد هذا الجغرافى هذه المسافة بـ ٥٣٠ قامة، وبقسمة هذا الرقم على ٧ كما تعبر عن ذلك نفس تسمية الهبتاستاديوم. (أى الطريق التى يبلغ طولها سبعة ستاد أى سبع غلوات) فإنه يقدر بذلك قيمة الغلوة التى ينبغى اتخاذها أساساً لتحديد الأطوال الدقيقة لهذه المدينة القديمة بـ ٧٦ قامة.

وينبغى الاعتراف بأنه، إذا كان طول هذه الغلوة الجديدة، لايرتكز إلا على هذا المعطى لكانت النتيجة خاطئه بقدر ما قد يعترى القاعدة التى تكون قد استخدمت فى تحديدها، حيث إن الخريطة التى يحدد هذا الطول على أساسها غير دقيقة، ذلك أن جسر الهبتاستاد، الذى يربط بين المدينة وجزيرة

فاروس، يظل مفقوداً بشكل تام، وسط كتلة الرمال التى ترتكز عليها المدينة الحديثة.

كيف يمكننا إذن أن نتعرف فى واقع الأمر على طرفى هذا الطريق الذى يبلغ طوله كما يذكر هيرتيوس ٩٠٠ خطوة أى ٩/١٠ من الميل الرومانى أو ٦٨١ قامة، والذى تفضى نهايتاه كلاهما إلى ميدان يحميه حصن وتقع أمامه قنطرة؟ وقد يكون بمقدورى أن أعتقد أن أسوار الرصيف القديمة، التى تحيط بمنشآت البحرية فى الميناء القديم هى بقايا وأنقاض الهبتاستاد، لكن هل كان هذا الجسر الذى يتجه إلى الجزء الغربى من جزيرة فاروس يتبع خطاً مستقيماً؟ أم تراه أنه كان مقطوعاً مثل ذلك الجسر الذى يتصل اليوم بحصن الفنار؟ هذا ما نجهله، وفضلا عن ذلك فمن أية نقطة ينبغى أن نبدأ فى تعداد الغلوات السبع ؟ هذا أيضاً مالم نتمكن من معرفته طوال السنوات الثلاث التى احتل الفرنسيون خلالها مصر؛ لكننا نستطيع هنا على الأقل أن نلاحظ المسافة التى تقدمها الخريطة الكبرى للأسكندرية، والتى رسمت بمقياس ٠٫٠٢٥م لكل ١٠٠م، بين نفس النقطتين اللتين حددهما دانفيل، واللتين أشرنا إليهما من قبل، فهى تبلغ ٦٦٥ قامة (أى ١١/١٠٠ ١٢٩٦م) أى ٧ غلوات إغريقية، طول الغلوة ٩٥ قامة

أو $\frac{١٦}{١٠٠}$ ١٨٥ م.

٨٠- أما إذا أقمنا أبحاثنا على أنواع أخرى من الغلوات لوجدناها تنطبق على الغلوة المصرية التي يقدرها دانفيل بـ ٥١ قامة أى $\frac{٤٩}{١٠٠}$ ٩٩ متراً.

وهذه هى النتائج التى يعطيها تطبيق هذه الغلوة الصغيرة على الامتداد الحالى للاسكندرية، فقد شاهدنا من قبل أن طول الشارع الكبير، بدءا من بوابة الميناء القديم حتى بوابة رشيد، كان يبلغ ٣٢٢٥ متراً، أما بخصوص متوسط عرض السور ابتداء من باب البحر المطل على ساحة الميناء الجديد إلى باب العمود فى الجنوب فيبلغ ١٠١٣ متراً. وهذه المقاييس تعطى طولا قدره ٣٢ غلوة وعرضا قدره ١٠ غلوات، طول كل غلوة ٥١ قامة.

وأكثر من ذلك، فإننا إذا أخذنا محيط السور الحديث بالتتابع، وبأكبر قدر من التحديد، بفتحات ثلاث مختلفة لبرجل، أطوالها على التوالى ١٠، ٢٠، ٥٠ قامة، كما فعلنا نحن على "كروكى" الخريطة الكبيرة لهذه المدينة، لوجدنا امتداداً قدره ٤٢٥٠ قامة أى ٨٣ غلوة، طول الغلوة ٥١ قامة.

٨١- هذا الانضباط فى تطابق العلاقة بين هذه المقاييس الأخيرة الموجودة على خريطة مضبوطة، رسمت بمقياس رسم كبير هو ٠,٠٢٥م لكل ١٠٠ م، مع المقاييس التى طبقها سترابون على سور ندعى مع دانفيل أنه هو السور الحديث، يبدو أنه ينهى المشكلة وأنه يحسم أن الغلوة التى حددها هذا الجغرافى اليونانى فيما يمس اتساع الأسكندرية هى الغلوة المصرية الصغيرة ذات الـ ٥١ قامة وليست الغلوة الأولمبية ذات الـ ٩٥، وأخيراً، فإن السور الحالى لهذه المدينة التى ننسبها للعرب سيكون هو سورها فى عهد الإغريق والرومان. ومن الواضح أنه إذا كان هذا الاحساس، وهو منتشر إلى حد ما[1]

---

(١) استولى عمرو بن العاص ، قائد الخليفة عمر، على مدينة الأسكندرية، بعد أربعة عشر شهراً من الحصار، فقد أثناءها ٢٣ ألف رجل، ولم يكن لدى هيرقل امبراطور القسطنطينية، الذى جمع قوات هائلة لنجدة هذه المدينة، وكذلك لنجدة أورشليم (بيت المقدس)، التى كانت فى نفس الوقت محاصرة بواسطة عمر (كذا !)، لم يكن لديه إلا الوقت الذى يكفى لكى يعطى حبر (مقوقس) الاسكندرية سلطات مطلقة للتفاوض، وبعد أن أنصت عمرو فى برود - وكان معسكراً فى ضواحى المدينة - إلى مقترحات المقوقس، أجابه وهو يشير إلى عمود كبير كان أمامهما : « أترى هذا العمود ؟ لن نخرج من مصر إلا بعد أن تكون قد التهمته». وقد كتب، وهو الذى كان قد وقع فى قبضة أهالى الأسكندرية قبل ذلك ببضعة أيام فى إحدى جولاته الاستطلاعية وأفلت لحسن حظه =

لا يجد الأساس اللازم لتأكيده، لأول وهلة، وذلك فيما يتصل بالعلاقة الدقيقة للمقاييس التى للسور الحالى مع المقاييس التى قدمها بعض المؤلفين القدامى فإن المرء مع ذلك لا يستطيع كلية ألا يستفيد مما يذكره المؤرخون العرب، الذين يشهدون بأن عمرو بن العاص قد قلب هذا السور رأساً على عقب، فى حوالى السنة ٢٢ من الهجرة الـ ٦٣٢ من الميلاد، وبأن ابن طولون حاكم مصر، قد أمر بتشييد أسوار جديدة لهذه المدينة بعد ذلك بـ ٢٣٣ سنة، وأن هذا السور الجديد قد

= بفضل مهارة الجندى الذى كان يرافقه، كتب بعد أن استولى فى النهاية على الأسكندرية إلى الخليفة عمر أنه وجد فى هذه المدينة ٤٠٠٠ قصر، وعدداً مماثلا من الحمامات العامة، و ٤٠٠ سيرك أو ساحة للألعاب، و ١٢,٠٠٠ حديقة، و ٤٠,٠٠٠ يهودى يدفعون الجزية، وقد حطم هذا الغازى البغيض (كذا!) المعابد والكنائس وأمر بإحراق مكتبة سيرابيوم (راجع ما سبق أن أوردناه نقلا عن جاستون فييت - المترجم) ودك الأسوار ونقل مقر الأمبراطورية الجديدة (!) إلى الفسطاط التى تسمى حالياً مصر العتيقة.

من كتاب:

Histoire du Bas-Empire, Tome XII Liv LVIII et LIX.

وثمة كثير من المبالغات بالتأكيد فى هذا النص، وعموماً فى كل تاريخ الشرقيين فكيف يمكن أن نصدق على سبيل المثال وجود ٤٠٠ سيرك أو ميادين ألعاب، و ٤٠٠٠ حمام ومثلها من القصور؟

قلص من اتساعها المبدئى إلى النصف[1]، ونسعى الآن لكى نقيم الدليل على هذه الشهادات الأخيرة.

٨٢- وهكذا، فإذا تبنينا نحن الغلوة المصرية ذات الـ ٥١ قامة، فإننا لن نجد بعد، هذا الاتساع الذى ينسبه إلى المدينة، كل المؤلفين القدامى الذين انتهينا من ذكرهم فى أبحاثنا السابقة.

يقدر سترابون المسافة الواقعة بين الباب الغربى للأسكندرية وبين مدينة نيكوبوليس الصغيرة[2] (بولكى)، والتى

---

(١) فى العام ٢٦٠ من الهجرة (٨٧٥ من العصر الحديث) أمر ابن طولون كما يقول المكين ببناء أبراج وأسوار للأسكندرية بالشكل الذى توجد عليه اليوم. وهذا الحاكم هو الذى أمر بتشييد الجامع الكبير والرائع الذى يحمل اسمه، والذى يقع إلى الجنوب من القاهرة داخل سور قصر قديم كان يقيم فيه، والذى لايزال يحمل اسم قلعة الكبش، وكان هذا القصر يحمى مدينة الفسطاط من الشمال، وينبغى الظن بأنه فى العام ٦٠٠ من الهجرة (١٢٤١ من العصر الحديث)، أمر السلطان صلاح الدين، وهو الذى شيد قلعة القاهرة ببناء أسوار ضخمة لمدينة الأسكندرية.

(٢) يحدد سترابون المسافة من نيكوبوليس إلى الأسكندرية بـ ٣٠ غلوة، وعلى هذا، فحيث أنه كان لهذه المدينة الأخيرة نفس الطول من البوابة الكانوبية إلى بوابة نكروبوليس، فإننا نضيف هنا هاتين المسافتين، بقصد البدء من نقطة محددة ومعروفة، وهى النقطة من الباب الغربى للأسكندرية، فى حين يظل موقع البوابة الكانوبية المقابلة، عند الطرف الشرقى غير محدد.

حددنا موقعها فى مكان قصر القياصرة، بـ ٦٠ غلوة؛ ويعطينا هذا الرقم ٣٠٦٠ قامة أو ٥٩٦٤ متراً إذا كانت الغلوة تبلغ ٥١ قامة، و٥٧٠٠ قامة أو ١١١٠٩ ٥/١٠٠ متراً اذا كانت تبلغ ٩٥ قامة؛ على أن المسافة الفعلية التى تعطيها الخريطة الملحقة بهذه الدراسة هى ٤٠٠٠ قامة أو ٧٧٩٦ متراً و ١٥ سم[١].

ويلاحظ المرء أنه يوجد هنا وهناك فى هذا التقسيم اختلاف يجعل الغلوة المصرية أصغر بمقدار يتجاوز الربع، بينما تظل الغلوة الأولمبية أكبر بنفس النسبة على وجه التقريب، حيث سنحصل على أرقام ٧٨ غلوة مصرية، و ٤٢ غلوة إغريقية.

٨٣- وإذا قمنا بنفس الحساب لمسافة الـ ١٢٠ غلوة التى يذكرها نفس هذا الجغرافى ابتداء من البوابة الكانوبية فى مدينة الأسكندرية حتى مدينة كانوب، فسنجد أن هذه الـ ١٢٠ غلوة تعطى ٦١٢٠ قامة بحساب الغلوة الصغيرة ذات الـ ٥١

---

(١) هذه الخريطة للسواحل المتاخمة إلى الشرق وإلى الجنوب الغربى، قد رسمت بمقياس ٠,٥٠/ م لكل ١٠٠م، ويعود الفضل فيها إلى المسيو تاسكان Tasquin ، الضابط ذى العبقرية الحربية فى جيش مصر.

قامة، بينما يرتفع الرقم إلى ١١,٤٠٠ قامة بحساب الغلوة الإغريقية ذات الـ ٩٥ قامة للغلوة الواحدة؛ ومع ذلك فقد سبق أن قلنا في الفقرة ٤١ إن خرائب كانوب تقع على بعد ٢٥٠٠ متر أو ١٢٨٢ قامة، على الساحل، إلى الجنوب الغربي من خليج أبي قير، وإذا بدأنا القياس من بوابة رشيد، وجدناها تبعد بـ ٢٠,٧٠٠م أو ١٠,٦٢٠ قامة وثلاثة أقدام؛ وعلى هذا فإن الـ ١٠,٦٢٠ قامة تعطي حين تنقص منها ١٢٨٢ قامة ٩٣٣٨ قامة أي ١٨,٢٠٠متر، وهي المسافة التي تعطيها في الواقع خريطة هذا الجزء من سواحل مصر.

ونرى هنا أيضاً أن هذين النوعين من الغلوات ليسا قابلين للتطبيق على المسافة التي يشير إليها الجغرافي الإغريقي، لأننا إذا ما قسنا المسافة الفعلية والتي تبلغ ٩٣٣٨ قامة من الأسكندرية حتى خرائب كانوب بـ ٥١ قامة للغلوة فسنحصل على ١٨٣ غلوة مصرية وهو رقم كبير لحد مبالغ فيه، أما إذا قسناها بحساب الغلوة ٩٥ قامة، فسنحصل على ٩٨ غلوة، وهو رقم صغير لحد مبالغ فيه كذلك.

وإذا ما تابعنا نفس الحسبة لمسافة الـ ٧٠ غلوة والتى أشار إليها بالمثل ستـرابون ، من باب نكروبولـيس إلى شيرسونيسوس بروموـنتوريـوم Chersonesus Promontorium وهو خليج على الساحل، إلى الجنوب الغربى من الأسكندرية، الذى يشغل مكانه حالياً الحصن الصغير التابع للشيخ (العجمى)، فإننا سنجد أن هذه المسافة تبلغ ٣٥٧٠ قامة تساوى ٦٩٥٨ ٦/١٠٠ متراً، بحساب الغلوة المصرية ذات الـ ٥١ قامة، و٦٦٥٠ قامة تساوى ١٢٩٦١ ٩/١٠٠ متراً، بحساب الغلوة الإغريقية ذات الـ ٩٥ قامة، ولكن المسافة التى تعطيها نفس الخريطة تبين أن تلك المسافة التى بينت قبل ذلك تبلغ ٦٠٧٥ قامة تساوى ١١٨٤٠ ٤٠/١٠٠ متراً بمحاذاة شاطىء الخليج.

وأخيراً، فإننا نرى أن الغلوة المصرية ستكون أكثر صغراً من ذلك، مادامت المسافة التى تعطيها ليست إلا حوالى النصف من المسافة الفعلية مع تقريب يبلغ ١/١٢، ويمكن أن يكون هذا الاختلاف ناتجاً عن بعض الانحناءات والتعرجات التى كانت تزيد عن طول الطريق القديم بهذه النسبة.

٨٤- بينت للتوفى هذا الفحص، أن الغلوة المصرية كانت بالغة الصغر وأن الغلوة الإغريقية كانت فى المقابل بالغة الطول، لحد لا نستطيع معه أن نجد فى استخدامهما الامتداد الحقيقى للأسكندرية القديمة وللمدن المحيطة بها؛ وكما سبق أن قلت إن دانفيل، الذى يشاطرنا هذا الإحساس، كان قد انطلق من قاعدة غير مؤكدة فى أبحاثه حول متوسط طول الغلوة التى وجدها فى نسبة ٣:٤ على الأكثر أو على الأقل مع هذين المقياسين القديمين. وسأقدم فى الجدول الآتى بيانات عن المسافات المقارنة فى استخدام هذه الغلوات المختلفة:

بيانات عن المسافة الطولية للأماكن		عدد الغلوات المبينة	العدد بالقامات للغلوات ذات		المسافات المختلفة للأماكن		عدد الغلوات باعتبار الغلوة تساوى		
			٥١ قامة	٩٥ قامة	بالقامة	بالمتر	٥١ قامة	٧٦ قامة	٩٥ قامة
الاسكندرية	القديمة	٣٠	١,٥٣٠	٢,٨٥٠	–	–	٦٠	٤٠ ١/٣	٣٢
الاسكندرية	الحديثة	٣٠	١,٥٣٠	٢,٨٥٠	١,٦٥٤٤	٣,٢٢٥	٣٢	٢١ ٢/٣	١٧ ١/٣
	نيكوبوليس (بولكلى)	٣٠	١,٥٣٠	٢,٨٥٠	٤,...	٧,٧٩٦	٧٨	٥٢ ١/٣	٤٢
من الاسكندرية إلى	كانوب (ابو قير)	١٢٠	٦,١٢٠	١١,٤٠٠	٩٣٢٨	١٨,٢٠٠	١٨٣	١٢٢	٩٨
	شيرسونيسوس (حصن العجمى)	٧٠	٣,٥٧٠	٦,٦٥٠	٦٠٧٥	١١.٨٤٠	١١٩	٨٠	٦٤

وإذا ما قارنا هذه المعطيات فيما بينها، ومع دلالات المسافات كما أمدنا بها المؤلفون القدامى، فلن نجد سوى علاقات غير متوافقة، وسوف نقتنع، كما بين ذلك المسيو جوسلان Gossellin ، فى أبحاثه عن الجغرافية اليونانية، أن سترابون لم يقدم عن الأسكندرية إلا مقاييس خاطئة، لأنه هو نفسه لم يكن يعرف قيمة الغلوات المختلفة التى قدمها فى جغرافيته لمصر.

وقد أكون أكثر ميلا لتبنى، كمقياس، قيمة؛ الغلوة كما يقدرها دانفيل أى بـ ٧٦ قامة، تساوى ١٤٨,١٣ متراً، إذ يبدو لى هذا الطول وسطاً نسبياً بحيث أنه يقرب أطوال المسافات عن تلك التى أعطيت - على وجه التقريب - بشكل تخمينى، للأسكندرية القديمة؛ ولكننى سأقف بأبحاثى عند هذا الحد، إذ سيكون من التجاوز أن أسعى لكى أضع الأسس لغلوة جديدة، فى الوقت الذى يتبنى فيه العلماء هذا العدد الكبير من الغلوات المختلفة، وفى الوقت نفسه الذى ينقسمون فيه، إلى هذا الحد، حول النظام المترى للقدماء؛

لكننى سأكتفى بملاحظة حول هذا الموضوع، هى أن النص الذى انتقل إلينا من المؤلفين القدامى، لابد أن يكون قد أصابه بعض التحوير على يد المترجمين أو الشارحين، بقدر ما ينبغى أن نقتنع بذلك عن طريق القيام بفحص مدروس لجغرافية إيراتوستينوس Eratosthène وبطليموس، ومؤلفين آخرين أقل قدما .

٨٥- يبقى على أن أبرهن على أن السور الحالى الذى ينسب إلى العرب ليس هو نفس السور فى عهد الإغريق، وهذا ما ذهب إليه - على عكس رأى المسيو دى توت M.de Tott [1] - كل من دانفيل وبوكوك Pococke ونيبور Niebuhr ،

---

(١) يظن المسيو دى توت (Mémoires sur les Turcs Tome II,p. 180) أن السور الحالى المنسوب للعرب هو نفس سور الإغريق؛ لكن دانفيل Memoires sur L'Egypte ، وبوكوك (Voyage en Orient, t. Ier p. 493) يذكران على العكس من ذلك ، أنه فى العام ٦٠٠ من الهجرة (١٢١٢م) أمر خلفاء صلاح الدين بإعادة إنشاء أسوار الأسكندرية، ويقول نيبور (Voyage en Arabie) إن النقوش الكوفية، الموجودة على الأبراج الرئيسية للسور الحالى لمدينة الأسكندرية، تنسب بناءه إلى الحكام العرب.

وسونيني Sonnini ، ومؤلفين آخرين محدثين أشاطرهم نفس رأيهم.

٨٦- أما الخرائب الهائلة التى نجدها فى ضواحى الأسكندرية، وبشكل أساسى على طول الساحل الشرقى للميناء الكبير، وكذلك فى الشمال الشرقى وإلى الجنوب، وفيما بين السور وشواطئ ماريوتيس، فهى قرائن تشهد بأن المدينة كانت تحتل فى الماضى مساحة من الأرض أكبر اتساعاً بكثير. وفى الواقع فثمة نقطة يتفق عليها كل المؤرخين، هى تلك التى تحدد العرض الذى كانت تشغله المدينة، أى فيما بين البحر والبحيرة، إلى الجنوب. يقول كينت كورس « كانت الأسكندرية تشمل فى الواقع، كل الفراغ الواقع بين البحيرة والبحر » وعلى هذا، فإذا كنا فى وضع يسمح لنا بملاحظة امتداد مياه الاغراق الحديثة والقريبة من هذه البحيرة والتى تأتى عن طريق البحر، وأن نلاحظ كذلك خرائب المبانى الموجودة على شواطئها، على الرغم من أننا لم نستطع معرفة أين كانت توجد حدودها الأخيرة، وما إذا كان النهر، كما

حدث قديماً، يصب فيها المياه التى تزيد من اتساعها، فإننا على الأقل، نستطيع أن نحددها بربطها بخرائب الأرصفة وأنقاض الحواجز والخزانات أو الصهاريج، التى نجدها على حواف الشواطئ الجنوبية للخليج أو ترعة الأسكندرية.

وقد سبق أن قال سترابون، قبل كينت كورس «إن المرء لم يكن يصل إلى الأسكندرية إلا عن طريق برزخين ضيقين، بينما لايمكن الوصول إليها من جهة البحيرة إلا عن طريق موانى النهر» ويضيف هذا الجغرافى « إن النيل الذى يزيد فيضانه عن حجم بحيرة ماريوتيس لايترك للأسكندرية، عند انحساره، أى جزء من مستنقعات يمكن أن ترتفع منها روائح كريهة وضارة» إذن، فلقد كانت البحيرة، فى حالة المياه المنخفضة، تغرق الأسوار وأرصفة موانى النهر، وكذلك السور الجنوبى لهذه المدينة.

٨٧- وينبغى كذلك أن نكون أكثر ميلا للاعتقاد بأن السيرك أو الهيبودروم Hippodrome ، وكذلك المرتفع الذى ينهض عليه اليوم عمود سبتيموس سيفيروس (عمود

السوارى)، كانت كلها تقع داخل المدينة، اللهم إلا إذا كنا نفترض أن كل هذه المواقع والخرائب العديدة التى نقابلها، كانت تشكل جزائر متباعدة داخل مياه ماريوتيس.

٨٨- وثمة دراسة أخرى، يتفق عليها بشكل عام، وهى أن كل الجزء الواقع إلى الشمال الشرقى، خارج السور الحالى، والمطل على الميناء الجديد، والذى كان يسمى فيما مضى portus magnus أى الميناء الأعظم (وهى حاليا الميناء الشرقية)، كان يشكل جزءاً من هذه المدينة القديمة، ولايدع وصف سترابون، الذى يضع هناك حى بروخيون أو حى القصور، وميناء الملوك، وكذلك وصف هيرتيوس Hirtius الذى يعطيه له فى كتابه عن الحرب الأهلية فى الأسكندرية، لا يدع كلا هذين الوصفين أى شك حول هذا الموضوع.

إن الخرائب الهائلة التى يعثر عليها، والتى تذكر بقاياها بكل المبانى التى تتطابق مع هذه الشهادات هى بنفس النظام والترتيب اللذين ينسبهما إليها جغرافيونا. يقول يوسيفوس، الذى كتب تاريخ اليهود فى هذه المدينة، فى حوالى سنة ٧٠

من الميلاد، إن اليهود كانوا يسكنون فى زمنه جزءاً من حى القصور؛ ويقول سان جيروم، الذى كتب عن نفس المدينة فى حوالى عام ٤٢٠، إن هذا الحى نفسه، والذى كان منفصلا فى ذلك الوقت عن المدينة، قد أصبح ملجأ لبعض النساك المنعزلين، كما كان مهجوراً تماماً فى عصر سان إبيفان، الذى كان يعيش فى نحو نهاية هذا القرن.

وينتج عن هذه الشهادات التى لا يمكن الطعن فى صحتها، أن السور الحالى للمدينة سور حديث، حيث إن كل الجزء الذى كان مأهولا للغاية فى عهد البطالمة وحتى نهاية القرن الرابع، والذى يستخدم اليوم كمدفن خاص بالطائفة اليهودية، يظل مهجوراً كلية، وخارج هذا السور نفسه الذى ننسب بناءه إلى الحكام العرب.

٨٩- قلنا فى القسم الأول من هذه الدراسة، الفقرة رقم ٢٠ إن المرء يلاحظ بدهشة، ذلك الاستخدام غير المألوف فى أى مكان آخر، لعدد كبير من الأعمدة التى أدمجت فى بناء جسم أبراج وجدران هذا السور، وأن هذه الأعمدة الموضوعة بشكل أفقى، بين مسافة وأخرى، تسمح برؤية أطرافها على

واجهات هذه الجدران. وإليكم الملاحظات التى يمكن استنتاجها من ذلك والتى تأتى لتدعم تحليلنا.

لا يتخيلن المرء إلا أن بناة الأسكندرية قد استطاعوا أن يجلبوا بنفقات باهظة، من الصعيد، ومن ممفيس، وهليوبوليس، بل ومن اليونان نفسها، وإيطاليا، هذه الكمية الهائلة من الأعمدة من الحجر الرملى، وكذا الأعمدة الجرانيتية والرخامية، والتى تنتمى إلى أنواع أخرى[1] لكى يستخدموها فى بناء الأسوار الحصينة، التى التحمت بجسمها هذه الأعمدة، على هذا النحو الغامض، ذلك أنهم بالتأكيد لم يكونوا ليكلفوا خاطرهم كل هذه المشقة ولا أن يتكبدوا كل هذه النفقات فى قطعها وصقلها- الأمر الذى لا يزال واضحاً حتى اليوم، أو الذى كان واضحاً فيما مضى، حيث يتحدث كل المؤرخين القدامى عن هذه القصور، وهذه المعابد، وهذه الأروقة وهذه الشوارع المزدانة بالأعمدة، والتى كانت مثار

(١) يقال إن من الضرورى أن كثيرا من هذه الأعمدة المصنوعة من الرخام الأبيض قد جلبت من اليونان أو من إيطاليا، حيث إنه من المعروف أن كل المبانى القديمة فى مصر العليا، لاتشتمل إلا على أعمدة حجرية أو جرانيتية، وفضلا عن ذلك، فإننا لانعرف محاجر للرخام الأبيض فى مصر.

إعجاب كل من زار هذه المدينة؛ كما لا ينبغى الاعتقاد بالمثل، بأن ألوف الأعمدة التى تراها مكدسة، لتشكل أرصفة وحواجز بحرية فى مينائى المدينة الحديثة، قد قطعت مبدئياً لهذا الغرض. أليس من الطبيعى للغاية أن نظن أن هذه المدينة الرائعة - التى أحنى عليها الزمن والتى دمرتها الحروب السياسية والدينية أثناء قرون المسيحية الأولى، والتى انتهى عمرو البغيض (كذا !) بأن قلبها رأساً على عقب، حيث لم تعد تشكل إلا مدينة الأنقاض والخرائب عند خلفاء هذا الغازى - قد أعيد بناؤها من نفس مواد أنقاضها؛ وأن ثمة ألوفاً من الأعمدة المحطمة والمقلوبة، والتى لم يعد لها نفع فى تجميل معابد مخصصة لعبادة اندثرت أو لقصور أخرى ومبانٍ عامة، تستخدم فى دعم وتقوية جدران هذا السور[1]، ونضيف إلى ذلك أن الطابع الذى تحمله عمارة الجدران والأبراج الجميلة

---

(١) لابد لنا أن نظن أن استخدام هذه الأعمدة التى وضعت على هذا النحو فى جسم الجدران كان له غاية مفيدة، هى منع أو إيقاف سقوط الأجزاء العليا من هذه الجدران فى حالة تصدع أو تقويض الأجزاء السفلية بفعل المنجنيق أو أية آلات حربية أخرى، كانت تستخدم فى ذلك الوقت، أوقات الحصار.

فى الأسكندرية هو - وبشكل مطلق - نفس الطابع الذى تحمله الأجزاء التى ماتزال ظاهرة من السور، وبخاصة قلعة القاهرة، ونتيجة لذلك فإننا نقرر بشكل موضوعى أن سور عاصمة مصر الحديثة وقلعة هذه المدينة، يعود إلى حكام مسلمين، وبصفة خاصة إلى السلطان صلاح الدين الذى أمر ببنائه في الجزء الأكبر منه، فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر.

٩٠- وهناك ملحوظة أخيرة تأتى لتدعم افتراضنا، تقوم على الشكل الدفاعى الذى للسور ابتداء من البرج المسمى بالبرج الرومانى على الميناء الجديد وحتى باب رشيد، والذى

ب قدم قامة
يبلغ امتداده ١,٥٩٠ متراً ٨ ٤ ٨١٥؛ ويلاحظ المرء فى

الواقع أن نظام كل هذا الجزء هو أن يدافع عن نفسه ذاتياً ضد المناطق الخارجية التى تحتلها اليوم مقابر اليهود، والتى تقع كما سبق أن بينا فى نفس حى بروخيون القديم أو حى قصر الملوك، ومن جهة أخرى فنحن نعرف أن يوليوس قيصر

كان قد قام بتحصين هذا الحى من بقية المدينة، على نفس نظام قلاعنا، أثناء الحصار الذى تحتم عليه القيام به ضد قوات البطالمة وأهل الأسكندرية؛ لذلك لايمكن للمرء على الإطلاق أن يستخلص فى هذه الحالة، أن السور الحالى لهذا الجزء من المدينة، كان جزءا من مدينة الإغريق على أى وجه من الوجوه، حيث إنه قد بنى بنظام الدفاع المضاد أى أنه يصارع ويحارب - على العكس - حى الملوك القديم[1].

٩١- ويمكن الاعتقاد، تبعا لما يقوله أحد المؤرخين العرب، وهو ابن عبد الحكم والذى يورده الفرجان فى صفحة ١٥٩، أن هذه المدينة كانت مزودة بثلاثة أسوار بالشكل الذى كانت عليه

---

(١) لابد أن نكون على يقين من أن هذه المدينة قد قلبت رأساً على عقب، وأن سورها الحالى الذى يعلوه مائة برج، ليس فى جزئه الأكبر، إلا عملا بالغ الحداثة، حتى أننى تعرفت عند باب رشيد، فى الحفريات التى قام بها المهندسون العسكريون لتغطية هذا الباب، أثناء حصار هذه المدينة فى يولية ١٨٠١، على حصن نصف دائرى تذود عنه من الأمام حفرة، كما أننى تعرفت على طريق مرصوف بالبازلت الأسود على طريقة الشوارع الرومانية. وقد شق هذا الطريق على عمق خمسة أقدام تحت نفس هذا الباب الحديث، وعلى هذا النحو كانت تزدحم شوارع روما. كما نتعرف على ذلك اليوم فى عمود تراجان، وفى قوس سبتيموس سيفيروس وفى أماكن أخرى من عاصمة العالم القديمة هذه.

كل المدن القديمة على وجه التقريب، ومن المحتمل عندئذ أن السور العربى الذى نحن بصدده هو السور الداخلى للحصن القديم الذى على أنقاضه، قام الحكام المسلمون بإعادة بنائه؛ لكن صمت المؤلفين القدامى عن موضوع هذه الأسوار الثلاثة لا يسمح بالتوقف كثيراً عند هذا الاحتمال، الذى لايمكن أن يعد سوى دعم ضعيف لما نحن بصدده.

٩٢- وأنهى هنا هذه المناقشة التى تؤكد بشكل لانزاع فيه ماقلته من أن السور الحالى، الذى قلص إلى حوالى نصف الاتساع الذى كان عليه فى زمن الإغريق، لايمكن أن يكون فى الواقع إلا من عمل الحكام العرب أو ربما أباطرة المشرق، ذلك أنه يمكننا أن نستنتج من النص التاريخى الذى أوردناه من حصار الأسكندرية على يد عمرو، أن هذا السور قد تقلص، ولابد، فى جزء منه - عند نحو منتصف القرن السابع - إلى الاتساع الذى له اليوم من ناحية الجنوب، لأن هذا الغازى كان ولاشك معسكراً إلى مافوق مرتفع سبتيموس سيفيروس عندما أعطى هذه الإجابة البالغة الحدة لمقوقس

الأسكندرية: هل ترى هذا العمود؟ لن نخرج من مصر إلا إذا أكلته[1]. ومع ذلك فلابد أن هذه المدينة كانت قوية للغاية فى هذه الفترة، حيث فقد على أسوارها هذا القائد ٢٣ ألف رجل بعد حصار دام ١٤ شهراً، وإنى لأميل إلى الاعتقاد بأن أول إعادة لبناء سور الأسكندرية، قد تمت قبل وقت قليل من انتهابات هذه المدينة تحت حكم الامبراطورين كلوديوس الثانى وأورليان فى عامى ٢٦٩ و٢٧٥ من العصر الحديث.

٩٣- وبعد أن أوضحنا أن المرء لايمكنه أن يؤسس على معطيات المؤرخين القدماء، فيما يخص الامتداد المبدئى (للأسكندرية) فى عصر امبراطوريات الإغريق والبطالمة، والرومان، حين حلت الصحراء محل الجزء الأكبر من أرض هذه العاصمة القديمة لمصر، فلا يبقى على سوى أن أبرز المواقع التى حددتها لبعض هذه المبانى على الخريطة المرفقة.

---

(١) انظر الهامش السابق ووروده مع الفقرة ٨١ من هذه الدراسة.

ولن أضع في اعتبارى هنا أن أقيم مناقشة جديدة سعيا للعثور على الشكل الذى كان عليه سور هذه المدينة، والذى يقارنه بلين Pline بمعطف مقدونى إذ ليس لذلك كبير أهمية، وفضلا عن ذلك فلابد أن نفترض أن نقاشا كهذا سيكون فيه من الحذق أكثر مما فيه من الدقة والتحديد؛ لابد إذن أن أنبه مسبقا أن الخط الذى بينته على الخريطة قد تأسس على تصور الأماكن فى حالة دمارها الحالى أكثر مما هو مؤسس على أبعادها التى قدمها المؤرخون القدماء الذين يصعب أن نوفق بين مقاييسهم المختلفة، ولابد أن القارىء سيقتنع بذلك حين يطلع على الأطوال المتنوعة للمقاييس القديمة والحديثة التى بينتها فى هذا الخصوص، على هذه الخريطة.

٩٤- قلت من قبل إننى أعتقد أن حصن الفنار، كان يمثل موقع هذا المبنى القديم، أحد أعاجيب الدنيا السبع وقد تأسس هذا الرأى على شواهد تاريخية ، وعلى البراهين الآتية :

ينسب المؤرخون العرب إنشاء الفنار[1] إلى الفرعون العاشر مصراييم بن بوصير، وهو نفس الفرعون الذى أسس راكوتيس، كما ينسبونه كذلك إلى الملكة دوليكا Douleka وإلى دارا (داريوس) الفاتح وإلى بطليموس فيلادلفوس، وإلى كليوباترا، وما يقوله هؤلاء المؤلفون عن هذه المقاييس هو بلا شك أمر مبالغ فيه.

ومع ذلك ، فينبغى القول على الدوام بأن هذا المبنى جدير بأن يعد من عجائب الدنيا السبع؛ وقد تحطم الفنار جزئيا عند حوالى نهاية القرن الهجرى الأول فى عهد الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، حوالى عام ٧٠٥ من الميلاد، بفعل خدعة من أحد الأروام كما يذكر المقريزى ، وقد أدت هزة أرضية ، حدثت سنة ١٧٧ هجرية أو ٧٩٣م إلى انهيار جزء من قمته ، وهكذا كان الفنار مبتورا فى سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢م) ، وفى حوالى عام ٢٦٠هـ (٨٧٣م) أمر أحمد بن طولون بتتويج الفنار بقبة خشبية . ونجد على الواجهة الشمالية ، وهى تلك التى تطل على البحر، نقشا يبلغ طول كل حرف من حروفه ذراعا

---

(١) Voyage d'Egypte et Nubie, par Norden, t. III édition de Langlès, p. 162 et. 169, Paris 1801.

ويعرض يبلغ الشبر، وهذه الحروف التى لم يقدم لها شرح ما، كانت ولاشك هى حروف النقش الإغريقى الذى أمر بتنفيذه هناك سوستراتوس عن إكنيدوس Sostrate de Cnide سنة ٢٨٣ ق .م ، وقد أدى زلزال أرضى مرعب ، شعر به الناس فى بلاد البربر ومصر وسوريا، إلى تحطيم جزء آخر منه . وفى عام ٦٧٣هـ (١٢٧٤م) تقوضت أعمدة وسقوف الفنار، كما انهار مسجد بنى فيه فى عام ٧٠٢هـ (١٣٠٣م) بفعل زلزال أرضى آخر ، أضر بالفنار وبعض أجزاء من جدران أبراج الأسكندرية، حتى أنه لم يكد يبقى شىء من هذا المبنى. وقد أمر الناصر محمد بن قلاوون، فى السنة التالية، بإعادة بناء المسجد، الذى ظل موجودا حتى زمن المقريزى، فى حوالى نصف القرن الخامس عشر.

ومن جهة أخرى، فإننا نقرأ عند عبد الرشيد أن سليم (الأول) ، فى عام ١٥١٧، قد أمر ببناء مسجد وقصر فى نفس مكان الفنار، الذى كان فى ذلك الوقت قد تخرب تماما، ولايزال المسجد والقصر موجودين حتى اليوم ، ويحملان نفس الاسم[١].

(١) Dècade Egyptienne, t, Ier p.237

وكذلك: Mèmoire sur l'Egypte, t. II p. 54, Paris, 1800

٩٥ – وسوف ندرك بالتأكيد، تبعا لتفاصيل هذه الأحداث، أن الفنار القديم لم يستطع البقاء فوق الصخرة المسماة الماسة Diamant ، التى تحدثت عنها فى القسم الأول ، الفقرتين ٦،٧ حيث إن أنقاض هذا المبنى الضخم ، الذى قوضته رأسا على عقب زلازل أرضية عديدة ، قد أغصت البحر فى المناطق المجاورة ؛ كما يلاحظ المرء فى الواقع ضحالة المياه فيما حول حصن الفنار، فى الوقت الذى لانجد فيه على العكس من ذلك ، إلا مياها شديدة العمق حول الماسة.

٩٦ – ولا يفوتنى عند الحديث عن الفنار القديم أن أتناول الجزيرة التى منحته اسمه ، والتى كان موقعها موضوعا لمناقشات طويلة بين المؤلفين والجغرافيين المحدثين ، ولن أتناولها هنا إلا لكى أحسم الأمر ، إن كان ذلك ممكنا ، تبعا لما ذهب اليه سترابون، وبفعل المعرفة الكاملة التى حصلت عليها عن مواقع الأماكن. يقول سترابون: إن هوميروس الذى كان قد سافر إلى مصر ، كثيرا ما كان يخلط الأساطير بتاريخه الشعرى، وفى الواقع ، فإنه يمكن الظن بأن هذا المؤلف قد استخدم الأساطير على هذا النحو ، فى تلك الفقرة

التى أدت إلى هذه المناقشات الطويلة ، يقول هوميروس «إن جزيرة فاروس كانت تبعد عن الشاطىء المصرى بمسافة تساوى تلك التى تقطعها سفينة تدفعها ريح مواتية فى يوم كامل[1] »

إن هذا النص الذى ارتكز عليه خطأ كثير من المؤلفين المحدثين كى يتلمسوا تقدم ترسيبات الدلتا، هو أبعد عن أن يكون قد توضح بدرجة كافية، وهذا هو الفحص الذى يدعم رأيى بهذا الخصوص.

إذا لم يشأ المرء أن يفهم من كلمة فاروس ، إلا أنها هى هذه الجزيرة الصغيرة التى كانت تقع بالقرب ، وإلى الشمال الغربى، من راكوتيس ، تلك القرية البحرية التى بنيت عندها مدينة الأسكندرية، فإننى فى وضع يسمح لى بأن أأكد أن

---

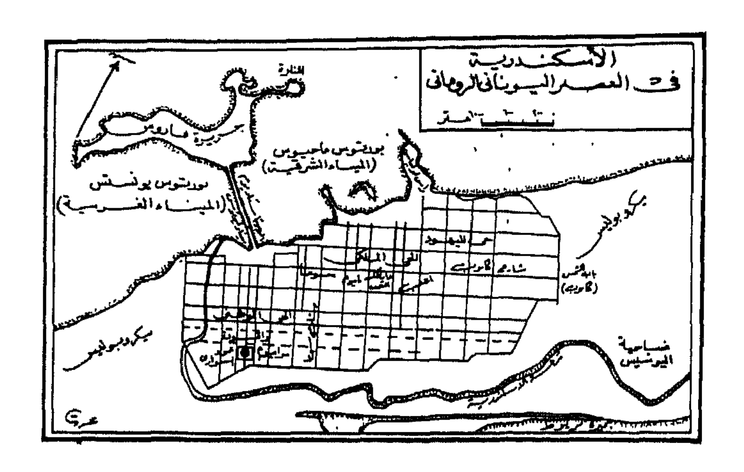
(١) هوميروس، الأوديسا، الكتاب الرابع، الأبيات من ٣٥٤ إلى ٣٥٧. وقد جاء هوميروس بعد حرب طروادة بـ ٣٧٧ سنة، وهى الحرب التى قامت حسبما يذكر هيرودت فى العام ٣٤٣٤ من العصر الجوليانى أو ١٢٨٤ قبل الميلاد.

هذا النص عار من كل دقة جغرافية ، حيث لم تكن تبعد هذه الجزيرة الصغيرة عن مدينة الأسكندرية إلا بمسافة ٧ غلوات، وهو مايساوى٦٦٥ قامة أى ١٢/١٠٠ ,١٢٩٦ مترا وبمعنى أخر، فإن هذه المدينة قد بنيت فوق شبة جزيرة طويلة ، تمتد (أى شبه الجزيرة) من المصب الكانوبى عند الشرق إلى جنوب الجنوب الغربى ،لمسافة ١٠ ميريامتر أو ٢٠ فرسخا ، وهى تتكون من سلسلة من الجبال تتصل بمرتفعات يبدو أنها كانت تنتهى إلى البحر الفارغ فى الصحراوات الليبية؛ لكن هذه السلسلة ؛ التى ليست سوى صخرة متصلة من طبيعة حُجرية، ترتفع عادة من ٥ إلى ١٠ إلى ٢٠ مترا فوق مستوى سطح الماء؛ وكانت شبه الجزيرة هذه وكذلك جزيرة الفنار موجودتين فى زمن هوميروس، حيث قد جعل هذا الشاعر بطله مينيلاس ، الأمير الإغريقى ، يرسو فى كانوب، وهى المدينة التى كانت تقع نحو الطرف الشرقى لشبه الجزيرة هذه بالقرب من رأس هيرقل، المسمى حاليا خليج أبى قير، حيث كان ينتهى الفرع الكانوبى ويصب مياهه فى البحر؛ وهكذا فإن جزيرة الفنار

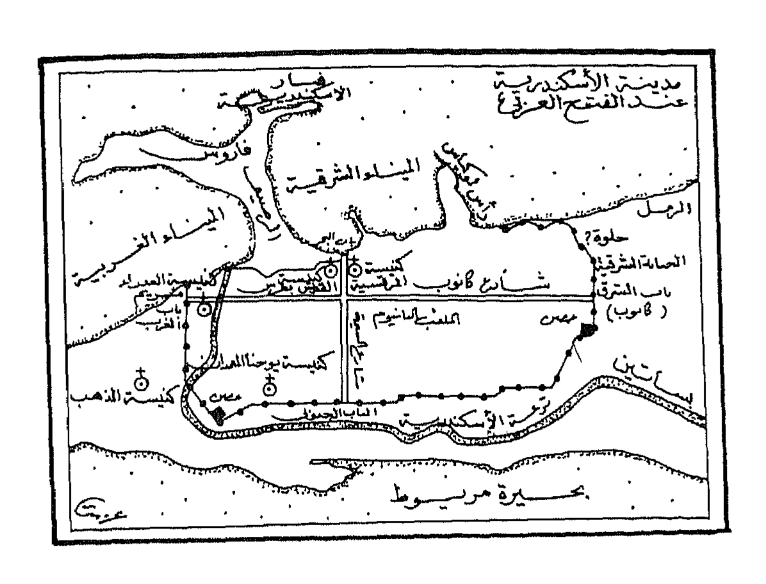
أقل ارتفاعا عن مستوى أرض كل شبه جزيرة الأسكندرية أما المسافة التى تفصل بينهما، والتى تبلغ ٢١,٧٢٠ مترا (١١,١٤٤ قامة) محسوبة باستخدام حساب المثلثات، وفى خط مستقيم مع خليج هيرقل، فهى أقل بكثير جدا مترا الإبحار ليوم ، وهو الذى يقدر بـ ٥٠٠ غلوة أو ٦٠ ميلا رومانيا[1] ، أى مايبلغ ٤٥,٠٠٠ إلى ٤٧٠٠٠ قامة تساوى ستة عشر فرسخا بحريا ونصف الفرسخ.

---

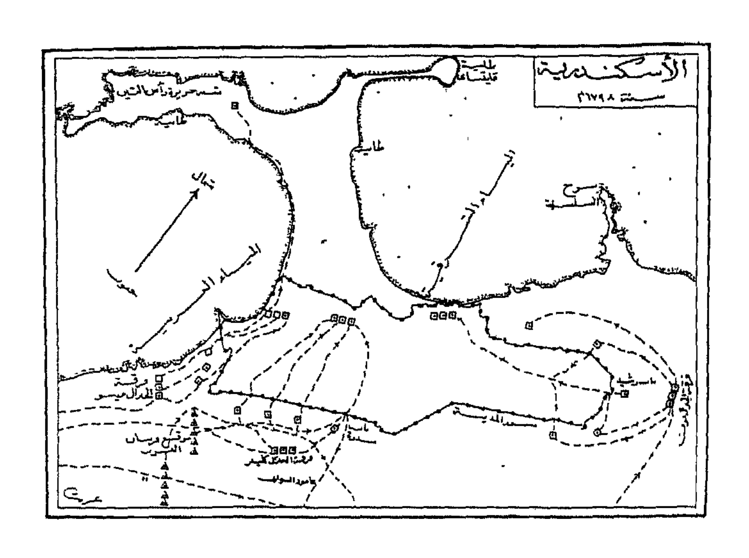
(١) يقدر الابحار ليوم كامل كما يذكر دولوميان Dolomieu فى ملخصه حول نفس الموضوع (Journal de Physique de 1793, t XLII, P. 176) بـ ٥٠٠ غلوة أو ستين ميلا رومانياً؛ فالـ ٥٠٠ غلوة تساوى ٤٧.٢٥٠ قامة، وتقدر الـ ٦٠ ميلا رومانيا بـ ٤٥,٣٦٠ وهو مايبلغ ١٦,٥٠ فرسخاً بحرياً، ويساوى الفرسخ البحرى ٢٨٥٣ قامة، ويقدر الإبحار لنهار وليل بـ ١٠٠٠ غلوة أو ٩٤,٥٠٠ قامة حسبما يقدر تيوفيل Thèophile ، كما يذكر الأستاذ جوسلان Gosselin فى كتابه:
Navigation des aneiens, t, II. p. 38.



الاسكندرية فى العهد الاغريقى والرومانى



الإسكندرية عند الفتح العربى لمصر



الأسكندرية وقت الحملة الفرنسية

إذن فعلينا أن نبحث في مكان آخر عن شبه الجزيرة هذه، ومن الأسكندرية حتى كانوب ، بل وحتى المصب الكانوبى، عن الساحل الذى أراد أن يشير إليه الشاعر الإغريقى فى هذه الإشارة الجغرافية الصرف ، وإلى المسافة التى تفصل جزيرة فاروس عن الساحل المصرى . ولذلك فإذا ماأريد أن يفهم - تبعا للتفسير الذى نورده لبعض العلماء المدققين ؛ نذكر من بينهم المسيو جوسلان - أن مسافة ابتعاد جزيرة فاروس التى تحدث عنها هوميروس قد قدرت على أساس ابتعادها عن إيجبتوس Aegyptus ، وهو الاسم الذى كان النهر يحمله فى ذلك الوقت ، وليس مطلقا عن مصر التى كانت شواطئها فى ذلك الوقت ليست سوى أرخبيل، فإننا نرى أنه ينبغى - والحالة هذه - أن يكون مصب النهر الموجودإلى أقصى الغرب ، وهو المصب الكانوبى - كما كان يسمى زمن حصار طروادة - فى ميتيليس Metelis أو فى هرموبوليس Hermopolis (حاليا فوه ودمنهور) الواقعتين على بعد ١٤و ١٦ فرسخا إلى الجنوب الشرقي. ومن العسير أن نفسر على خلاف ذلك ، نص الشاعر الإغريقى ، الذى كان

– حسبما يذكر سترابون – على علم ببرزخ السويس الذى كان موجودا فى عصره.

ولكن، هل كان لهوميروس أن ينسى عند حديثه عن جزيرة فاروس هذه أن يتكلم عن شبه الجزيرة هذه ، الطويلة والضيقة والتى تقع أمامه على بعد سبع غلوات فقط ، وتضم مدن كانـــوب ، راكوتـــيس ، نيســـيى ، بلنتيـن (رشيد) ، ومدينتى تابوزيريس..إلخ إلخ ، اللهم إلا إذا لم يكن يعنى بهذا الاسم شبه الجزيرة هذه نفسها ؛ لكن هذا الصمت عن وجود شبه الجزيرة التى كان ينبغى أن يلحق بها كذلك بقية الجزر ، وكل الساحل الصحراوى المرتفع ، والذى ينتهى جنوبا ببحيرة ماريوتيس ،هذا الصمت لابد أن يحمل على الاعتقاد أن جزيرة فاروس التى تحدث عنها الشاعرالإغريقى ، والذى قال إنها كانت تقع فى أعالى البحار ، لابد أنها قد غرقت ، أو بمعنى أصح أنها لم تكن سوى أسطورة أو جموح شعرى ، إن لم نقل بأنها مبالغة ، حيث إننا لانستطيع مطلقا أن نحملها ، كما رأينا ، على أنها الجزيرة الصغيرة التى أمر بطليموس،

بعد أكثر من ستمائة عام بأن يشيد عليها هذا البناء ، أحد عجائب الدنيا السبع ، والذى عرف باسم فاروس ، وتوجد هذه الجزيرة الصغيرة اليوم ، وقد اتصلت بفعل عمليات ردم الرمال بشبه جزيرة الأسكندرية .

ويخيل إلى أن ماسقته الآن يحسم نهائياً هذه المسألة.

٩٧ - أعود الآن إلى الميناء الجديد الذى يحمى مدخله عند الشرق حصن صغير ، أدى موقعه أمام وفى مواجهة حصن الفنار لأن يشار إليه باسم المنارة أو الموقد Pharillon ولست أظن أن هذا الحصن الصغير يشغل مكان حاجزالموج القديم الذى كان يعرف باسم أكرولوخياس (السلسلة حاليا) لأن هذا الحاجز ولابد ، قد كان فيما مضى يتوغل كثيرا داخل البحر باتجاه الفنار ، إذا ما اعتمدنا فى ذلك على نص من لوكان Lucain ، إذ يقول هذا الشاعر بأن كليوباترا عندما أرادت اللحاق بقيصر فى الأسكندرية ، قد دخلت إلى هناك عن طريق الميناء الكبير ، بعد أن أدركت حاكم الفنار ، الذى فتح لها سلسلة فناره وتركها ترسو فى ميناء حى الملوك حيث كان يسكن قيصر . ويبدو أن مدخل الميناء الكبير ، كانت تقفله سلسلة كانت لاتزال تستخدم حتى عام ١٥٥٠ كما يذكر

ليون الأفريقي ، الذى كان يطلق على هذا الميناء اسم مرسى السلسلة أى ميناء السلسلة ، وقد رأينا فى القسم الأول ، الفقرة ٤ أن فتحة هذا الميناء الذى يقع بين الحصنين اللذين يذودان عن مدخله ، كانت تبلغ ١٧٨٩ مترا (= ٥ ق ٩١٧ قامة)، ولسنا نتصور - دون شك - أنه يمكن أن تمتد هذه السلسلة من حصن لآخر بعرض هذا الممر ، بل يمكننا أن نستخلص أن الأكرولوخياس كان متقدما بكثير نحو الفنار مع خط السلسلة الصخرية وخط أعماق المياه الضحلة ، كما أوضحناه على خريطة الأسكندرية.

٩٨ - وقد رأينا فى هذا القسم ، الفقرة ٧٩ ، أن المرء يظن أنه قد تعرف على اتجاه الهبتاستاد فى الخط الذى يمر بالبرج الشمالى لسور الميناء القديم ، والحصن الواقع فى الميناء الجديد ، بالقرب وإلى الجنوب الشرقى للطريق الذى يغطيه حصن الفنار ، وتماثل هذه المسافة التى تبلغ ٦٦٥ قامة مع تلك التى تبلغ سبع غلوات أولمبية ، لكن اتجاهها لا يتماثل مع ذلك الذى يقدمه سترابون ، حين يقول إن

الهبتاستاد كان يبتدىء من القارة ويتجه نحو الطرف الغربى لجزيرة فاروس ، بحيث إننى أذهب لحد أن أعطيه نفس الاتجاه الذى للبرج الكبير المشرف على ساحة الميناء الجديد ، نحو الحصن الصغير الواقع فى مركز الجوين الذى تكونه جزيرة فاروس إلى الشمال الشرقى من الميناء القديم؛ أما المجرى المائى الهندسى، الذى تحطم اليوم، والذى تحدثنا عنه فى القسم الأول، الفقرة ٢٩، والذى قد يكون هو أنقاض ذلك المجرى الذى كان ينقل المياه ، حسبما يذكر سترابون، إلى جزيرة فاروس عن طريق الهبتاستاد، فيقدم بعض الدعم لهذا الرأى ، ومع ذلك فكيف كانت مياه هذا المجرى تعبر الميناءين اللذين كانا يسمحان بمرور السفن من خلال الهبتاستاد ؟ واضح أن هذا السؤال يقدم بعض الصعوبات التى سيكون علينا أن نخوض طويلا لنبحث فى صميمها.

٩٩- ووسط الخرائب التى تحيط بالجانب الشرقى للميناء الجديد ، يتعرف الإنسان، حين يترك جسر الأكرولوخياس المحطم ، والمسمى حاليا بالمنارة Pharillon ، على حاجز بحرى ، لابد أنه كان جزءا من مدخل ميناء الملوك المغلق.

١٠٠- لم نستطع العثور على آثار جزيرة أنترودس Antirrhodos التي كانت تحجب ، كما يذكر سترابون ، مدخل هذا الميناء اللهم إلا إذا كانت هذه الجزيرة قد أحتلت موقع هذه الشعاب الصخرية التي توجد بحذاء سطح المياه، والتي لاتزال توجد عند مركز الميناء الجديد، منعطفة نحو غرب الجنوب الغربي.

١٠١ - وبمحاذاة الساحل إلى الجنوب ، توجد بقايا حاجز بحرى آخر ، يلفت النظر ببنيانه الحجرى الذى يتكون من أحجار بالغة الضخامة ، وتعود هذه الخرائب بلا جدال إلى هذا المرفأ أو الممر الذى يسميه بوليب : سيرنكس Syrinx ؛ والذى كان يؤدى إلى البوزيديوم posidium - ذلك الذى حددت مكانه بين تلك الخرائب الهائلة التى توجد فى هذه المنطقة تحت اسم قصر خرب palais ruinè (فى الخريطة). وفى هذه المنطقة أيضا كان يوجد معبد لنبتون، الذى أقام تجاهه مارك أنطونيو بعد أن هجره حزبه ، وهرب مع كليوباترا من خصمه اللدود أغسطس ، قصراً أسماه تيمونيوم

Timonium لكى يعيش فيه منسياً من العالم ، على غرار Timon تيمون الفظ ، كاره البشر(*) .

١٠٢- لايمكن للمرء أن يخطىء موقع الكيزاريوم أو القيصرون Coes-arium أو قصر الملوك ، بسبب وجود المسلتين اللتين تحدثنا عنهما فى القسم الأول الفقرة ١٩ ، حسبما يذكر بلين Pline ، الذى يقول « توجد مسلتان ومعبد لقيصر، ويبلغ طول المسلة الواحدة أربعين ذراعا، وقد أخذتا من آثار الملك مسفيس Mesphees rex.».

١٠٣- وقد سبق أن قلت إن الطول الإجمالى لكل من هاتين المسلتين، اللتين ذكر بلين أن ارتفاع كل منهما يبلغ أربعين ذراعا، يصل من القاعدة حتى قمتها الهرمية ٦ ٦٣ قدما أو ٢٠,٦٢٧/١٠٠٠ م ، وإذا كانت هذه الإشارة من بلين pline دقيقة محددة ، وهذا مالا نستطيع أن نعول كثيرا عليه، فإن قيمة الذراع تصل فى هذه الحالة إلى ١٩ بوصة تساوى ٠,٥١٦ من المتر.

(*) فيلسوف إغريقى من القرن الخامس قبل الميلاد.

١٠٤ - وقد تصورت أنه ينبغى أن أضع الجمناز Gymnase فى المكان الذى يجد فيه المرء الأطلال الهائلة لذلك القصر الخرب المطل على الشارع الكبير ، حيث إن الصفوف المتوازية من الأعمدة الضخمة ، التى لاتزال موجودة فى تلك الجهة ، تذكر بالدهاليز المغطاة لهذه المبانى ، والتى كان يبلغ طولها أكثر من غلوة.

١٠٥ - يضع كل من بونامى Bonamy ودانفيل d'Anville السيرابيوم Serapeum تحت جبل الأنقاض الواقع إلى الشمال الغربى من سور الميناء القديم ، والذى كان لايزال مقاما فوقه حتى عدة سنوات برج للمراقبة ، وأظن أن على أن أحدد مكان هذا المبنى ، الذى ذكر سترابون أنه كان يقع إلى الشرق من الترعة عند مرتفع صغير، بالقرب وإلى الجنوب من هذا الجبل ، حيث يجد المرء هناك خرائب هائلة ، لمبنى فخم بنى بالطوب الأحمر يشبه طوب القصر الخرب بالقرب وإلى الشرق من جامع سان أثناز.

١٠٦ – وأضع في مستوى عمود سبتيموس – سيفيروس البانيوم panium الذى يضعه كل من بونامي ودانفيل تحت ربوة أو جبل سانت كاترين ، الواقع إلى الجنوب الشرقى للسور الغربى ، حيث إن هذا المرتفع الذى نجد فوقه بقايا بناء ، يتفق لحد كبير مع الوصف الذى يعطيه سترابون للبانيوم ، الذى كان عبارة عن مكان مرتفع ولكن ارتفاعه هذا ليس من فعل الطبيعة وإنما هو من صنع الإنسان ؛ ومن قمة هذا المبنى يستوعب النظر كل المدينة والموانى القائمة على البحر والبحيرة فى سهولة.

وأرانى الآن مدفوعا إلى الاعتقاد بأن العمود الضخم ، عمود سبتيموس – سيفيروس (عمود السوارى) ، إنما هو واحد من تلك الأعمدة التى كانت تشكل جسرى الهبتاستاد ، اللذين من تحتهما كانت تمر السفن القادمة من Mangnus portus والذاهبة إلى Eunostus portus ؛ ومما يرجح هذه الفكرة وجود تلك الأعمدة ذات الأحجام المماثلة له أو المتقاربة معــه على الأقل ، والتى قال المسـيو دى مايبيه

Maillet إنه رآها فى البحر عند مدخل الميناء الجديد، لأنه إذا كانت هناك أعمدة كبيرة على هذا النحو ، قد أقيمت فوق قاع البحر وتشكل كما يقول سترابون جسرين تمر من تحتهما السفن عن طريق الهبتاستاد ، فلابد أن يكون حجمها هائلا لحد غير معتاد.

١٠٧ – ويتحدث سترابون عن سيرك كان موجودا عند مدينة نيكوبوليس الصغيرة (بولكلى) ، لكننى لم أتبين أثرا لذلك إلا بالقرب والى الجنوب من عمود سبتيموس (عمود السوارى)، فهل كان ثمة خطأ فى النص من جانب النساخ الذين ربما كتبوا نيكوبوليس على أنها نيكروبوليس! ذلك أن السيرك يوجد فى الواقع عند بوابة هذه المدينة الأخيرة، اللهم إلا إذا كان هذا السيرك قد بنى فى الأزمنة اللاحقة، كعمل من أعمال أباطرة روما أو سلاطين القسطنطينية.

١٠٨ – إذا كنا قد استطعنا أن نطبق– كما ذكرنا فى هذا القسم، الفقرة ٨٢– واحداً من مقاييس الغلوات المصرية أو الأولمبية على مسافة الـ ٤٠٠٠ قامة التى توجد بين الطرف

الغربى لشارع الأسكندرية الكبير والموقع الحالى لقصر القياصرة حيث حددنا موقع نيكوبوليس القديمة، فلن يخالجنا أدنى شك حول قيمة الغلوة التى يشير إليها سترابون، حين يقدر هذا الجغرافى نفس هذه المسافة بـ ٦٠ غلوة، ومع ذلك ، فعلى الرغم من أننا قد رأينا أن طول كل من هذه الغلوة وتلك لا يتفق وهذا البيان ، فإننا لن نتردد فى أن نحده عند قصر القياصرة موقع هذه المدينة القديمة ، ويدعم رأينا هذا تلك الخرائب الهائلة التى نجدها فى هذا المكان ، وكذلك بعض التماثيل من الرخام الأبيض التى اكتشفناها هناك ، والتى استخرجناها من وسط أنقاضها.

١٠٩ – ويمكن أن نستنتج أن قصر القياصرة يعود الى عصر جوستنيان Justinien ، فهو الذى أمر فى منتصف القرن السادس ببناء عدد كبير من المنشآت ، فى صحراوات سوريا وفى جبل سيناء وفى مصر وفى البنتابول الأفريقى ، ونقرأ عند procope de Cèsarèe أن هذا الأمبراطور قد أمر بإقفال مكان يسمى فيال phiale – يقع بالقرب من

الأسكندرية – بجدران حصينة ، كان يستخدم فى احتواء مخزون الحبوب عن طريق ترعة شيريه Chèrèe التى كانت تحمل مياه بحيرة ماريا ، ويتفق هذا النص تماما مع شكل وموقع هذا الحصن ، الواقع إلى القرب من الأسكندرية ، والذى لم يعد باقيا منه سوى جدران ذات سمك كبير[١] ، كما سبق أن قلنا فى القسم الأول من هذه الدراسة ، الفقرة ٣٨.

١١٠– أما المقابر التى تحدثنا عنها فى القسم الأول ، الفقرة ٤٦، والقسم الثانى ، الفقرة ٧٤، فهى بلا جدال من إنجاز شعب كبير العدد ينتمى لسلسلة طويلة من الأجيال ، ويقول المسيو أوليفييه Olivier بهذا الخصوص: إن علينا ألا ننسب لا إلى الإغريق ، ولا إلى الرومان الذين جاءوا بعدهم، الأعمال الضخمة لهذه الكهوف المقبرية حيث كان هؤلاء وأولئك يحرقون أجساد الموتى بدلا من تحنيطها على طريقة المصريين ، ويستخلص هذا العالم من هذا الرأى أن مدينة الأسكندرية كانت ولابد هائلة لحد كبير قبل مجيء الفاتح الذى

(١) Procope de Cèsarèe, traduit du Grec par Cousintome II, liv VI

منحها اسمه ، مادام ينبغى ، تبعا لرأيه ،أن ننسب هذه المنشآت إلى الشعوب التى سكنتها قبل مجيء هذا الحاكم (الإسكندر). وعلى الرغم من أننى قد قلت فيما سبق أن راكوتيس كانت بالضرورة قرية على درجة من الأهمية قبل فتح مصر على يد الإسكندر ، فإننى مع ذلك أذهب إلى عكس ماذهب إليه المسيو أوليفييه ، فأرى أن هذه المقابر تنسب إلى سكان هذه المدينة فى عصرها الإغريقى بل وكذلك فى عهدها الرومانى ، حيث ترك هؤلاء وأولئك - الإغريق والرومان - للشعوب التى أخضعوها عاداتهم، وبخاصة احتفالاتهم الدينية والجنائزية.

ونحن نعرف ، فى الواقع، أن الرومان لم يهتموا مطلقا بنشر ديانتهم فى مصر. بل إنهم على العكس من ذلك ، قد أقاموا فى روما معابد لإيزيس ولإلهات مصريات أخريات ؛ وفضلا عن ذلك فإن المعبد تحت الأرضى الذى يشار إليه على نحو غير دقيق باسم حمامات كليوباترا يرتبط بالنمط اليونانى وليس بالنمط المصرى فى فن العمارة ، بهذا التناسق

والانتظام فى تصميمه ، وبحفره من الداخل حيث هو منحوت فى الصخور.

١١١ - ويضم المسيو أوليفييه . دونما سند يدعم رأيه مدينة نكروبوليس إلى الأسكندرية ، حين يذكر أن الترعة التى كانت تتجه من بحيرة ماريوتيس إلى الكيبوتوس Kipôtos عبر الـ Eunostus portus [١] ، وليسمح لى هذا العالم بأن ألاحظ وجود صخرة قد أكتشفت على مسافة ١٠٠إلى ١٢٠ مترا من مصب هذه الترعة القديمة فى الخليج .. كانت تشكل نوعا من ميناء كان يذود عنه حاجز بحرى ؛ وإذا كانت هذه الصخرة غير طبيعية ، فإنها لاتكفى لدعم رأى سوف يعطى الأسكندرية فى الواقع ، وبالشكل الذى يطلق عليه هذا الاسم، مساحة كبيرة لحد لانهاية له ، وذلك حين يؤدى مايذهب إليه

.(١) نشر المسيو أوليفييه، الطبيب، وعضو المجمع العلمى الفرنسى فى عام ١٧٩٤ رحلته فى داخل الأمبراطورية العثمانية ومصر وفارس فى Voyage dans l' Empire ottoman,l'Egypte et la Perse ثلاثة مجلدات، وقد خصص في مجلده الثالث وصفا مفصلا لمدينة الأسكندرية فى فصل عدنا إليه فى كثير من الأحيان، وكان على الدوام ذا نفع لنا.

المسيو أوليفييه إلى أن نضع مقابر هذا الساحل دون جدال في ذلك الجزء من المدينة القديمة ، المسماة نكروبوليس أو مدينة المقابر.

وهنا أجد من الضرورى أن أنهى الأبحاث التى قمت بها أو عرضتها فى هذا القسم ، لأنها تكفى بوضوح كى تبين صعوبة التوفيق بين تقارير القدماء عن الاتساع الحقيقى لسور هذه المدينة القديمة.

* * *

ملخص

١١٢ - لقد أوضحت على التوالى فى ثنايا هذه الدراسة:

(ا) أن مدينة الأسكندرية الحديثة ، والتى قدمنا وصفا لها ، قد بنيت فوق كتلة من الرمال انتهى بها الأمر أن ربطت القارة القديمة بجزيرة فاروس ، وهى تدين بتكوينها إلى إنجازات مستمرة فى عمليات الردم على سواحل مصر ، وبخاصة إلى هذا الطريق القديم الذى أنشىء بقصد وصل القارة بهذه الجزيرة والذى اتخذ اسمه (الهبتاستاد) من طوله الذى يبلغ ٧ غلوات (ستاد تعنى غلوة).

(ب) أن أرض المدينة القديمة التى نقل إلينا سترابون وصفا لها لم تعد تشكل اليوم سوى أكوام من الأنقاض ، وبعض بقايا شائهة للمنشآت التى صنعت ازدهار الأسكندرية وعظمتها فى ظل امبراطورية البطالمة ثم امبراطورية الرومان.

(جـ) أن السور الحالى المسمى سور العرب لا يشكل سوى جزء من السور الذى كان لهذه المدينة فى عهد البطالمة والرومان، ومع ذلك فلا يمكن أن نحدد نحن بدقة حدوده القديمة، حيث لم يقدم لنا المؤلفون الذين نقلوا إلينا أوصافاً

له، سوى إشارات غامضة حول مختلف أنواع المقاييس التى تختلف أطوالها من إقليم لآخر، على الرغم من أنها تحمل نفس التسمية، على النحو الذى يتنوع به الميل والفرسخ عند مختلف شعوب أوربا .

١١٣- وعندما يأسى كل الرحالة المحدثون فى كتاباتهم علي ماآلت إليه هذه المدينة الرائعة، التى سوف تنمحى وتزول أطلالها عما قريب من فوق أرضها، وهو نفس المصير الذى آلت إليه منذ قرون كثيرة غابرة خرائب طروادة الإغريق، وأطلال بابل وطيبة وممفيس وتدمر وصور وقرطاجة وروما، تلك الحاكمة القديمة للعالم وأطلال مدينة اليهود المقدسة، وأطلال مدن أخرى اختفت من فوق الأرض، فإننى أكرر مع هذا المؤلف المتميز الذى يبدو وكأنما أراد أن يبعث الحياة فى رماد كثير من مدن خربت بشكل تام فى مؤلفه: الخرائب، أو تأملات حول سقوط الأمبراطوريات :

Ruines, Ou Mèditations Sur Les revolutions des empires.

أكرر هذا النص الذى شكل تصديراً لدراستنا هذه :

"لقد أصبحت قصور الملوك مأوى للحيوانات الضارية؛
وأضحت مذابح الآلهة مرتعاً للزواحف الدنسة.

آه! كم من مجد أفل نجمه
وكم اندثرت من روائع المنجزات؛
هكذا تفنى أعمال البشر، وهكذا تزول الأمبراطوريات والدول!"

ومع ذلك، فلو قدر للأسكندرية أن تؤول إلى حكم امبراطورية أو دولة قوية متنورة كما كان شأنها فى عهد البطالمة، فسوف يكون بمقدورها أن تجعل منها مركزاً لتجارة كل من أفريقيا والهند مع أوربا.

وإنى فى هذا الصدد، أحيل القارىء إلى الآراء التى قدمها مؤلف دراسة: القناة التى تربط بين البحرين، وهو المسيو لوبير، أخى الأكبر، والذى كنت أنا واحداً من معاونيه، وهى الآراء التى عرضها فى دراسته حول مشروعات إعادة ترميم هذه المدينة، ومع ذلك، فهل ياترى سيكون بمقدور هذه الآراء، التى أحيل القارىء إليها، أن تتحقق ذات يوم، من أجل

رفاهية سكان مصر ومن أجل ازدهار تجارة الأمم الأوربية.

ملحوظة: يحيل مؤلف هذه الدراسة عند حديثه عن الطقس ودرجة الحرارة فى الأسكندرية، الفقرة ١٦ وكذلك الفقرة ٥٠، إلى دراسته عن البحيرات البحرية فى مصر، ومع ذلك فلابد من ملاحظة أن هذا المؤلف لم يضمن دراسته هذه فى كتاب وصف مصر، إلا على شكل ملخص (الدولة الحديثة، المجلد الثانى، ص ٤٦٩ إلى ٤٨٢) أما الدراسة بأكملها والتى تبلغ ٣٥ صفحة بحجم الفوليو، والتى طبعت فى شهر يونيه ١٨١٥، فقد نسخت منها ١٠٠ نسخة أودعت المكتبة الملكية ومكتبة المجمع العلمى ومكتبات أخرى عامة، أو وزعت على عديد من العلماء، ويستطيع من يشاء الاطلاع عليها كاملة، أن يجدها فى الهيئات التى حددتها للتو.

* * *

الفهرس

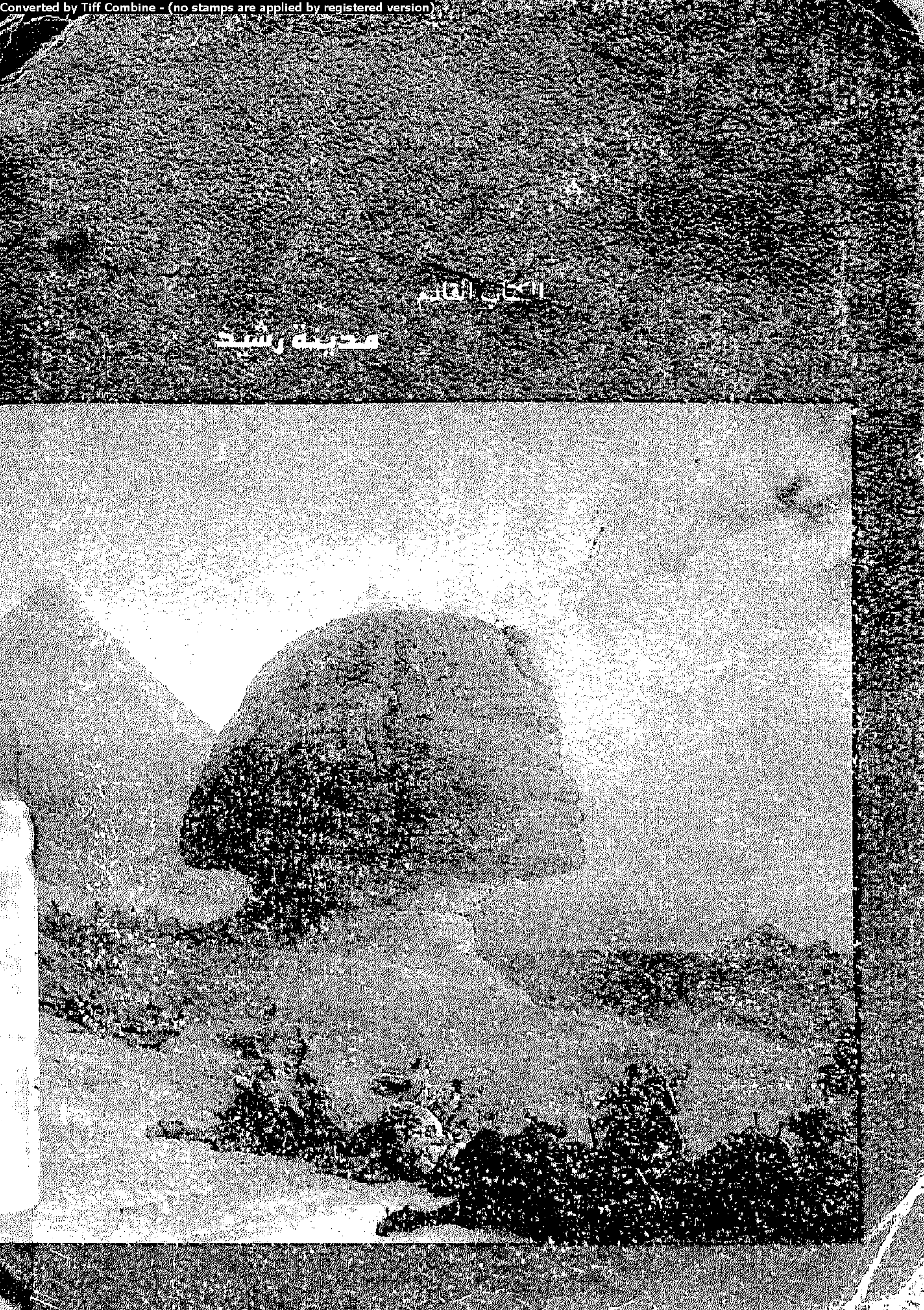






رقم الأيداع ١٨٧٣ / ١٩٩١
I.F.B.N
97700 - 1141 - x




الكتاب القادم
مدينة رشيد